

جذورها وخفاياها

الدكتور نبيل راغب

الدار المصرية اللبنانية



الشخصية الزئبقية

جذورها وخفاياها

دكتور نبيل راغب

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

الشخصية الزئبقية

جـذورها وخفـاياها

الناشـــر : **الـدار المصرية اللبنانيـة**

١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو

ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة

رقم الإيداع : ١٣٠٢٩ / ٩٦

الترقيم الدولى : 7 -315 - 270 - 977

جمـع وطبع : **عربية للطباعة والنشر**

العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين

تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

الطبعة الأولى : رمضان ١٤١٧ هـ ـ يناير ١٩٩٧ م .

مقدمة

لم تحظ الشخصية الزئبقية من قبل بدراسة تحليلية وتشريحية لجوانبها المختلفة والمتعددة والمتغيرة والمتلونة والمتناقضة ، بل كان الكتاب والدارسون يمرون عليها مر الكرام عند تحليلهم لظاهرة النفاق فى المجتمع، بل إنهم لم يستخدموا هذا المصطلح « الشخصية الزئبقية » الذى يستخدم فى هذه الدراسة لأول مرة ، وكانوا يستعيضون عنه بالشخصية الانتهازية أو المتملقة أو المتسلقة أو المنافقة . لكننا وجدنا أن الزئبقية مصطلح أو مفهوم أشمل ، لأنها تكاد أن تكون منظومة متكاملة لها جوانبها الإيجابية والسلبية ، التاريخية والاجتماعية ، السياسية والفكرية ، المهنية والنسائية . فهى ليست طبقة اجتماعية ولافئة مهنية ولا تشكل أى قطاع محدد من المجتمع . إنها تجمع من كل الطبقات وجميع المهن لأنها غير قاصرة على طبقة معينة أو مهنة معينة بل يمكن أن تترشح من جميع فئات المجتمع ، وأن تخرج من جميع التوجهات الفكرية والمذاهب والعقائد والأحزاب السياسية .

إن الشىء الذى يجمعها وينظمها ليس انتماؤها لطبقة أو مهنة أو حزب بل مصالحها الذاتية وأهدافها الخفية . أى أنها ظاهرة فردية وصفة تخص التكوين الأخلاقى للفرد .

صحيح أن الأفراد الذين تتجلى فيهم هذه الصفة الشخصية يمكن أن يتجمعوا فى شكل هيئة أو حزب أو تكتل ، ولكن ذلك لا يجعل منهم طبقة اجتماعية أو تكتلاً مهنيا أو فئة عقائدية ، فهم مجرد تجمع مؤقت عابر تقتضيه الظروف .

وقد تم اشتقاق مصطلح « الشخصية الزئبقية » من اللقب الذى اكتسبه بطل السيرة الشعبية المعروفة « على الزيبق » لأنه كان رمزا للقدرة الفائقة على المراوغة والمرونة والتأقلم والتكيف واستيعاب المتغيرات ، بالإضافة طبعا إلى الدهاء والمكر والحيلة والخداع . ونظرا لإعجاب الشعب المصرى بهذا البطل الشعبى الزئبقى وشخصيته المراوغة فى مواجهة الحاكم ؛ ونظرا لأنه جَسَّد الخاصية التى تسلح بها الشعب المصرى عبر عصور طويلة ومتتابعة من القهر والطغيان والخوف والاستبداد ، فقد وجدنا أن لقبه « الزيبق » خير معبر عن هذا الجانب فى الشخصية المصرية بصفة خاصة والشخصية الإنسانية بصفة عامة عبر التاريخ .

وهذا الجانب بإيجابياته وسلبياته تبلور عبر آلاف السنين نتيجة لوقوع مصر فى ملتقى قارات وامبراطوريات العالم . فقد وجد الإنسان المصرى كيانه فى مهب غزوات من الجهات الأربع : الشرق والغرب والشمال والجنوب . وكان عليه أن يواصل الحياة بأى شكل من الأشكال لحين انقشاع الغمة التى استخدم كل الوسائل المتاحة للتخلص منها ، برغم وقوعه تحت وطأة الحاكم الأجنبى ، وتهديده المستمر بالبطش به .

ونظرا لاستحالة المواجهة المباشرة مع الحاكم الأجنبى فى أحيان كثيرة ، فقد كانت الزئبقية خير وسيلة للحفاظ على الذات القومية لحين حلول لحظة المواجهة الحاسمة المباشرة . أى أن الزئبقية كانت نوعا من المواجهة غير المباشرة أو مرحلة من الكمون الإيجابى الذى يشحن الطاقات ، ويترقب التفاعلات ، ويتحين الفرص حتى لا تخوض معركة تبدو خسارتها فى الأفق حتمية ، خاصة وأن توقعاتها المستقبلية متشائمة لأنها تتوقع الشر دائما ، ولذلك فهى فى حالة استنفار خفى ودفاع عن نفسها بطريقة مسبقة ، لكنها تنقض على عدوها فى الوقت المناسب .

هذا عن الزئبقية الإيجابية كما تناولناها بالتحليل والتشريح والتفسير فى الفصل الثانى من هذه الدراسة ، أما عن الزئبقية السلبية فقد أفردنا لها الفصل الثالث عن « الزئبقية الفكرية » والفصل الرابع عن « الزئبقية السياسية » ، والفصل الخامس عن « الزئبقية المهنية » ، والفصل السادس « الزئبقية النسائية » . وهى الزئبقية التى تتجنب الموضوعية بقدر الإمكان حفاظا على تحقيق الأهداف الذاتية ، فالشخصية الزئبقية لا تعرف سوى الانتماء لذاتها ومصلحتها . وتعوض ضعفها ونقصها بخداع الآخرين ونفاقهم ، وبالتالى فهى تفترض فيهم الغباء والدونية . أى أنها ماكرة وخبيثة لكنها غبية فى بعض الأحيان خاصة عندما تتصور الآخرين عاجزين عن تقمص نفس الخواص الزئبقية .

ولعل تصورها هذا راجع إلى أنها شخصية متشرنقة تحيط نفسها بقشرة

سميكة لا تسمح للآخرين بمعرفة أهدافها ، فى حين أنها حريصة دائما على معرفة ما يدور داخل الآخرين .

وإذا كانت الزئبقية قد شكلت حبلا لنجاة الشعب المصرى فى كثير من الأحيان ، إلا أنها لم تكن خيرا كلها ، إذ أن كفة سلبياتها ترجح كفة إيجابياتها . وهى إذا كانت ضرورية فى عصور القهر والبطش والطغيان والديكتاتورية للحفاظ على الكيان الإنسانى ، فإنها تتحول إلى عقبة كأداء فى عصر الحرية والديمقراطية التى تحتم الانفتاح الفكرى ، وابداع الآراء ، وتبادل الأفكار دون حجر عليها أو خوف من عقاب أو بطش . فليس هناك أى داع للمراوغة واللف والدوران واللعب بالألفاظ والأفكار فى علاج أية قضية قومية أو حتى شخصية ، لأن هذا من شأنه إهدار للفكر والوقت والطاقة فى زمن أصبحت فيه هذه العناصر الثلاثة أغلى ما يملكه الإنسان المتحضر .

والمناخ الديمقراطى لا يتحرج من النقد الذاتى ، فليس عنده ما يخجل منه طالما أنه حريص على التخلص من سلبيات الضعف البشرى والنفس الأمارة بالسوء . وهذه الدراسة هى نوع من الممارسة الديمقراطية فى مجال تحليل الشخصية الزئبقية وتشريحها وتعريتها للتخلص منها . وليس هناك شعب من الملائكة أو الأخيار ، ولكن هناك شعبًا متحضرًا يملك العقل الواعى الذى يسد الثغرات ، ويرسخ الإيجابيات ، ويتخلص من السلبيات ، ويعلو بالكيان الحضارى أولا بأول .

والشعب المصرى كان أول من عرف الحضارة الإنسانية بمعنى الكلمة ثم قدمها للبشرية جمعاء .

وشعب بهذه العراقة الحضارية كفيل بالتخلص من كل سلبياته دون حرج أو حساسية .

ويخطىء الكثيرون حينما يصفون الشخصية المصرية من خلال تراثها الشعبى بالغفلة والاستكانة والسلبية . فالشعب المصرى لم يفقد شعوره العميق بالأصالة والتفوق والتمييز والقدرة على الاستيعاب والتأقلم والتجانس عبر العصور . ومع سيطرة الحكام الأجانب والدخلاء على مقدرات مصر ، والمصرى يعى كل ما يدور على الساحة السياسية بعين ناقدة حادة ومرونة زئبقية عجيبة تطلق الأقوال المأثورة والأمثال الشعبية كسهام إلى قلب الحاكم دون أن يعرف من أطلقها عليه . وكأن الشعب بأسره قد تحول إلى كتلة واحدة صماء لا يمكن اختراقها أو مادة هلامية مراوغة يصعب الإمساك بتلابيبها أو بأطرافها . ولذلك حرصت هذه الدراسة على أن تلحق بكل فصل من فصولها مجموعة مختارة من الأمثال الشعبية المتصلة بمضمون الفصل ، ولم تسع إلى شرحها ، وتفسيرها ، وإبراز التناقض فيما بينها ، لأنها تفسر نفسها بنفسها ، وتؤصل الأفكار والمفاهيم التى وردت فى الفصل . كما أن القارىء لن يعجز عن شرحها وتفسيرها وبذلك يشترك معنا فى دراسة الشخصية الزئبقية بدلا من أن يقتصر دوره على دور المتلقى السلبى .

ولعل التناقض بين الأمثال الشعبية والأقوال المأثورة يرجع إلى أنها فى

حد ذاتها مواقف حدية تجاه واقع مهترىء ، أجبر المصرى عل التعايش معه لكنه يقاوم التوحد . فهو يتوحد فقط مع أبناء جلدته ومع المقولات الأخلاقية التى تعبر عن توجهاته الحقيقية وتبلور النواة الصلبة الكامنة داخل شخصيته عبر العصور ، والتى مكنته من معايشة الأعاصير والهزات ، فظل مفاخرا بأصالته وعراقته ، ومتمسكا بشعوره الدينى الذى فتح له دائما نافذة الأمل فى أن الله سيجد له مخرجا فى أحرج اللحظات .

ومن الواضح أن جذور الزئبقية قد حاولت إفساد التربة المصرية فى عصر الحكم المملوكى التركى الذى كان أعمق العصور تأثيرا فى الشخصية المصرية سواء بالإيجاب أو السلب . فعندما وجد المصريون أنهم لا يملكون الأسلحة المادية التى يمكن أن يواجهوا بها بطش الحكام المماليك والعثمانيين ، تقوقعوا داخل الشرنقة الزئبقية بكل ما تنطوى عليه من مرونة وتجانس وتعايش وتأقلم وسخرية وتهكم وهجاء وغير ذلك من الأسلحة التى استخدموها بمهارة فائقة فى مواجهة السخرة ، خاصة إذا كانت صادرة عن شخصية الحاكم نفسه . ويبدو أن الهدف الأساسى لشعراء ذلك العصر كان إضحاك الشعب من حكامه وأمرائه ، سواء بالسخرية أو الاستهزاء أو المزاح أو الدعابة .

وقد بلور الجانب الإيجابى فى الشخصية الزئبقية كل قيم الصبر ، والجلد ، والكفاح ، والإصرار ، والمواصلة ، والصمود ، والمرونة ، والاحتمال ، والإيمان بالله ، والاعتماد على النفس ، والتفاؤل بالغد مهما

كانت المشاق والمتاعب والظلمات ، والصبر على المكاره ، والنظرة الثاقبة لحقائق الأمور ، واحترام قيمة العمل فى ظل أقسى الظروف ، والثقة والذكاء والدهاء فى مواجهة دنيا زئبقية تحتاج إلى نفس المهارة الزئبقية فى التعامل معها .

لكن فى مواجهة هذه الإيجابيات التى حافظت على هذه النواة الصلبة داخل الشخصية المصرية عبر العصور ، كانت هناك سلبيات زئبقية عديدة اعتورت بعض ملامح هذه الشخصية العريقة ، لكنها توقفت عند الملامح الظاهرية ولم تستطع أن تمس هذه النواة الصلبة التى تألقت دائما فى مواقف التحول القومى والمصيرى .

ولذلك كانت الفصول التى تتناول الزئبقية الفكرية ، والزئبقية السياسية ، والزئبقية المهنية ، والزئبقية النسائية ، محاولة تشريحية وتحليلية لإلقاء الأضواء الفاحصة على هذه الملامح السلبية التى لا تضرب بجذورها داخل الشخصية المصرية ، بل تكاد تكون أقنعة متغيرة بتغير الأحوال . ولا يزال جوهر هذه الشخصية الفريدة مثيرا لإعجاب الآخرين وانبهارهم قبل المصريين أنفسهم ، ولذلك فإنه من السهل إسقاط هذه الأقنعة الملونة ، المصطنعة ، المزيفة لكى نرى - ويرى العالم معنا - الوجه الحضارى العريق والأصيل لمصر .

وترجو هذه الدراسة أن تكون قد ساهمت فى نزع هذه الأقنعة وإسقاطها . فهى تهدف لكتابة التاريخ السرى ، السياسى ، الفكرى ،

الاجتماعى ، الاقتصادى ، الثقافى بصورة شبه تفصيلية على سبيل التوعية الفكرية والتنوير الثقافى .

وإذا كانت هذه الدراسة تدرك أنها لا تستطيع أن تلم بكل جوانب الزئبقية السلبية وعناصرها المتغيرة ، فإنها تتمنى أن تكون بمثابة افتتاحية لدراسات أخرى فى هذا المجال الحيوى والمثير بأقلام كتاب وزملاء آخرين ، خاصة وأن شعبنا يملك من الوعى واللماحية والذكاء ما يمكنه من تعرية كل الأقنعة التى تحاول الزئبقية أن تخفى بها حقيقة ملامحها الهلامية والمتقلبة .

فإذا كانت الزئبقية مقبولة فى الحياة اليومية من البشر العاديين الذين قد يعجزون عن إيجاد وسائل أخرى للحفاظ على معيشهم واستمرارها ، فإنها لا يمكن أن تكون مقبولة من المفكرين والمثقفين الذين يدركون جيدا بحكم فكرهم وثقافتهم ضرورة ترسيخ القيم الإنسانية الحضارية التى بدونها لا تقوم لأى مجتمع متحضر قائمة . فإذا كانت زئبقية الإنسان العادى قاصرة على محيطة الشخصى ، وبالتالى فإن آثارها التى يمكن أن تكون سلبية تظل محصورة داخل هذا النطاق الضيق ، فإن زئبقية المفكر أو الكاتب تمتد لتشمل كل من يتأثرون به سواء عن طريق التعامل معه أو القراءة لما يكتبه . وقد يكتشف بعض القراء زئبقيته فيصرفون النظر عنه ، لكن هذه الزئبقية الذكية ، الخبيثة ، المراوغة يمكن أن تنطلى على جمهور كبير من القراء العاديين . وبرغم أنه فى كلتا الحالين فاقد لمصداقيته إلا أن تأثيره السلبى على العقل الجمعى لا يمكن إنكاره .

ولا جدال فى أن الثقافة ليست مجرد معلومات يحشو بها الإنسان عقله، بل هى حياة متكاملة لها جانبها النظرى والعملى ، ولها بعدها الفكرى والسلوكى . ولذلك فإن نظرة المفكر أو المثقف إلى الحياة وسلوكه فى المجتمع يختلفان أو لابد أن يختلفا اختلافا بينا عن الإنسان الذى لم ينل حظه من الثقافة .

وإذا أصيب الكاتب بالزئبقية والتلون وأصبح من الآكلين على كل الموائد واللاعبين على كل الحبال ، فإن ثقافته تتحول إلى سلعة لمن يدفع أكثر . عندئذ تنتفى عنه صفة الكاتب أو المثقف أو حتى التاجر ، لأنه مفروض فى التاجر الشريف أن يبيع سلعة أصيلة صالحة للاستعمال المنشود ، أما سلعة الكاتب أو المفكر الزئبقى فهى سلعة مغشوشة ومزيفة تهدف إلى الحصول على أكبر قدر ممكن من المكاسب المادية الشخصية مقابل ادعاءات كاذبة ، وبراهين فاسدة ، وآراء مراوغة ، وقصائد مديح لا تخجل من التمسح بالأعتاب والتغنى بفضائل ومثل وقيم وعبقريات لا وجود لها على الإطلاق .

والفئة الزئبقية من المثقفين والمفكرين . مؤهلة بحكم وعيها الثقافى ومنظورها الفكرى لأن تنشط فى السياسة كى تصول وتجول بعد ذلك فى ميادينها . ففى إمكانها أن تستوعب المبادىء والتوجهات والتيارات السياسية ، وأن ترصد رغبات السياسيين وميولهم ، وأن تضرب على الأوتار ذات الصدى المسموع والمؤثر ، وأن تلعب على الحبال التى يمكن أن تؤدى بها إلى أهدافها الشخصية ، وأن تؤيد هذا الاتجاه ، وتتخلى عنه

غدًا ، وتتبنى هذا المذهب وتتجاهله غدًا ، لتتبنى مذهبًا آخر حسب مقتضيات المصلحة الخاصة .

أما الزئبقية السياسية فتتجلى فى أخطر صورها فى نظم الحكم الديكتاتورية والشمولية والاستبدادية التى لا تتيح للشعب أى فرصة للتعبير عن كيانه وإثبات ذاته ، فيضطر إلى استخدام الوسائل الزئبقية فى تحقيق أهدافه على المستوى الشخصى البحت لأن المستوى القومى رهن بإرادة الديكتاتور . فإذا كان الديكتاتور يعتمد فى حكمه على أسلحة الإرهاب والعنف والرعب والإذلال والخوف ، فإن المجتمع تحت وطأته يتحول إلى تربة خصبة ومرتع لكل مظاهر النفاق والانتهازية والتزلف والخداع والزيف ومسح الجوخ . ففى ظل الديكتاتورية يتخذ معظم الناس مواقف سياسية أو فكرية لا يؤمنون بها ، فى سبيل تحقيق أو حماية مصالح أنانية شخصية . أى أن الديكتاتورية تجبر المواطن على أن يصبح كائنا زئبقيا يغير مواقفه السياسية وتوجهاته العقائدية حسب تغير الظروف . فليس له موقف صريح ، واضح ، محدد حتى لا يحاسبه أحد عليه .

وتظل الزئبقية مستترة عند تحقيق أهدافها النفعية ، تحت وطأة الديكتاتورية ، لكن مع انتقال المجتمع إلى النظام الديمقراطى ، وتغير الظروف المعنوية والأدبية التى تحيط بالفرد ، وتوافر الفرص الجديدة السانحة للكسب والانتفاع فإن هذه الزئبقية سرعان ما تطفو على السطح للانقضاض على المكاسب المؤكدة والمحتملة . ولذلك يتحتم على النظام

الديمقراطى أن يحدد نوعيات الزئبقية التى يواجهها ، ومدى خطورتها ، وسعة مطامحها ، ونوعية كفاءتها ، حتى يسد عليها كل المنافذ التى يمكن أن تتسلل منها .

أما الزئبقية المهنية فتنقسم إلى زئبقية بيروقراطية وزئبقية حرفية . واذا كانت المرونة فضيلة مطلوبة سواء فى الأجهزة البيروقراطية ، أو المؤسسات الحرفية سواء على المستوى الآلى أو اليدوى ، فإن هذه المرونة لا تعنى الزئبقية على الإطلاق . ذلك أن درجة الجمود فى الجهاز الإدارى تعتبر مقياساً حساساً لدرجة التخلف الاقتصادى فى أى مجتمع . والنظام الإدارى الحضارى الناجح يمزج بين الدقة والمرونة والكفاءة فى تحقيق أهدافه الآجلة أو العاجلة ، لكنه لا يلجأ إلى الزئبقية التى لا تعنى سوى التسيب والتخلف واهدار المصلحة العامة .

أما الزئبقية النسائية فكانت نتيجة طبيعية للقهر الاجتماعى الذى عانت منه المرأة على يدى الرجل مما اضطرها إلى التسلح بكل أنواع التشكل الزئبقى حتى تواصل العيش بطريقة أو بأخرى ، وتحافظ على كيانها بقدر الإمكان . وكأن الرجل أراد أن ينفس عن قهره السياسى والاقتصادى على أيدى الحكام الأجانب فى قهره للمرأة التى لا حول لها ولا قوة ، فأحال البيت إلى معتقل أو سجن مؤبد لها . وكانت المفارقة الغريبة أنها اعتادت السجن الذى وجدت فيه حياتها التى لا حياة لها غيره. وتمثل رعبها الأزلى فى أن تجد نفسها ملقاة ذات يوم خارج أسوار السجن إذا لم يرض عنها سجانها .

هكذا تتعدد أنواع الزئبقية وعناصرها بتعدد مواقف الإنسان من الحياة وضغوطها . وهذه الدراسة هى رحلة مثيرة فى سراديب الزئبقية الغامضة وكهوفها المظلمة التى سيجوس القارىء خلالها ، مستعينا بنور بصيرته ونظراته الثاقبة ، ومقتلعا بيده الخبيرة كل الطفيليات الزئبقية التى تحاول الالتفات حول الثمار اليانعة للشخصية المصرية التى منحت العالم أول حضارة إنسانية عرفها ، ولا تزال قادرة على العطاء إذا ما تخلصت من العراقيل والسلبيات التى تعوق مسيرتها الحضارية . وهذه الدراسة محاولة لتطهير طريقها من أحد هذه المعوقات .

د . نبيل راغب

المهندسين فى ٦ يونيو ١٩٩٦

الفصل الأول

على الزيبق : بطلا شعبيا

من المعروف فى دراسات الفولكلور أن البطل الشعبى الذى خلدته الملاحم والسير الشعبية ، هو تجسيد للضمير الجمعى للشعب وليس نتيجة للإبداع الفردى . فهذا البطل هو تكثيف أو بلورة لشخصية الجماعة بكل ملامحها الاجتماعية والنفسية والتراثية وربما كان هذا سببا فى أن معظم الملاحم والسير الشعبية مجهولة المؤلف إلى حد كبير ، والمنسوب منها إلى مؤلف بعينه ، يبدو نسباً يفتقر إلى الدليل العلمى أو التاريخى القاطع . فمع التسليم بأن هناك مؤلفين معينين لمثل هذه الملاحم والسير فإنهم اندمجوا فى وجدان الجماعة وأصبحوا جزءًا غير مباشر أو غير ظاهر فيه . فقد استوعبتهم الجماعة وامتصت خصوصيتهم لكى تفرز فى النهاية خصوصيتها الجمعية التى تميزها والتى غالبا ما تتبلور فى شخصية البطل الشعبى الذى يصفه الدكتور عبد الحميد يونس فى كتابه « دفاع عن الفولكلور » بقوله :

« إنه إنسان بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى مهما كانت قدرته ، ومهما كانت الخوارق التى يقوم بها ، ومهما كانت القوة التى تعينه أو

يستعين بها . ومع هذه الإنسانية فيه ومع وضوح ملامحه ومشخصاته فإنه ليس فردا محدودا بذاته الخاصة ، لأنه « المثال » الذى ابتدعه وجدان الجماعة ليكون أنموذجا لكل من أفرادها فهو جماع فضائلها . وهو المحقق لأحلامها ورغائبها . وإذا كانت الملحمة التى تصدر عن الوجدان القومى تحكى ضربا من الصراع فإننا نلاحظ أن هذا الصراع يقوم على دعامتين :

أولاهما : صراع العدو المشترك .

وثانيتهما : تقويم السلوك فى الجماعة بحيث يصبح متفقا مع الأحداث العامة ومسايرا لمثل الجماعة فى وقت واحد .

والملحمة الشعبية تمهد دائما لظهور البطل ، وهى تبدأ قبل خروجه إلى الدنيا ، وتمر بمراحل من الإرهاص والتبشير ، ثم تأخذ فى متابعته خطوة خطوة ، وتثقفه بما ينبغى لمثله أن يثقف ، وتهيئه لأحداثها الكبرى وأعماله غير المألوفة ، لا يأتى العجب فيها من الشذوذ ، وإنما من المبالغة فى المألوف نفسه » .

ويوضح عبد الحميد يونس أن اشتياق الشعب لتحقيق النصر وإثبات ذاته يؤدى دائما إلى انتصار بطل الملحمة الشعبية فى النهاية . فهو يحقق للشعب ما يتمنى أو ما يعجز عن تحقيقه . قد يحدث خلاف جانبى بينه وبين بعض الشخصيات الثانوية نتيجة لبعض دوافع الغيرة أو الحقد التى غالباً ما تنشأ بين الذات المتفردة وبين العصبيات

الصغيرة، لكن البطل الشعبى ينتصر فى النهاية لأنه يمتلك الإمكانات والطاقات التى قد تصل إلى حد الخوارق والتى لا تتجمع فى شخصية أخرى غيره .

ولم تخلع الملحمة الشعبية صفة الشجاعة على بطلها فحسب ، بل حرصت أيضا على إبراز جانب الدهاء والذكاء والمكر ، وذلك لإدراك الشعب أن الشجاعة والجرأة والقوة لا تكفى وحدها فى كسب المعركة . ولذلك فإن من أهم خصائص البطل الشعبى المرونة ، وفهم الآخرين ، وقوة الملاحظة ، وسرعة البديهة ، وحسن التدبير ، وإخفاء النوايا ، وتضليل الخصم ، واصطناع الحيلة ، وتجنب الاندفاع والتهور . فالحرب فى النهاية خدعة ينتصر فيها الأكثر ذكاءً ودهاءً وحنكة ومكرًا . ولقد كان أبو زيد الهلالى مشهورا بحيلته نفس اشتهاره بالشجاعة ، وهى الخاصية التى يفسرها المثل السائر « سكة أبو زيد كلها مسالك » . وفى سيرة « الظاهر بيبرس » كان جمال الدين شيحة تجسيدا للدهاء الذى تبلور فى العبارة المشهورة « ملاعيب شيحة » . أما فى سيرة « على الزيبق » فقد كان البطل نفسه أنموذجا للدهاء والمكر والحيلة والخداع لدرجة تلقيبه بلقب « الزيبق » رمزا للقدرة الفائقة على المراوغة والمرونة والتأقلم والتكيف واستيعاب المتغيرات .

ونظرا لإعجاب الشعب المصرى بهذا البطل الشعبى الزئبقى وشخصيته المراوغة فى مواجهة الحاكم ، ونظرا لأنه جسد الخاصية التى تسلح بها الشعب المصرى عبر عصور طويلة ومتتابعة من القهر

والطغيان والخوف والاستبداد ، فقد اشتققنا مصطلح الشخصية الزئبقية من اسمه ، بحيث انتقل التركيز من على شخصه إلى الشخصية المصرية بصفة عامة فى الفصول التالية ، أما هذا الفصل فقد خصصناه لدراسة هذه الشخصية الشعبية المثيرة التى قد تمكننا من وضع أيدينا على ملمح من أهم ملامح الشخصية المصرية .

ويرجح فاروق خورشيد فى كتابه « أضواء على السير الشعبية » أن تكون « سيرة على الزيبق » تالية فى كتابتها للظاهر بيبرس ، إذ تنتهى الأحداث الحقيقية لسيرة الظاهر بيبرس بوفاة الناصر بن قلاوون ، فى حين يرد فى نهاية سيرة على الزيبق اسم الناصر بصفته واليا على مصر من قبل الخليفة هرون الرشيد . ويصف فاروق خورشيد هذه الفترة التاريخية فيقول :

« وهذه الفترة التى شهدت حكم مجموعات متتالية من أمراء المماليك ، كثر بينهم القتل والغدر منذ الظاهر حتى طومان باى الغورى ، تعتبر أحلك فترة فى التاريخ المصرى من حيث نظام الملك ، وطريقة عمل أجهزة الحكم ، فتكون سيرة على الزيبق ، عرضا روائيا نقديا للحياة فى مصر أيام حكم هؤلاء المماليك ، وتكون أيضا ، استمرارا لسلسلة السير ، من حيث تناولها للعصور التاريخية فتتعرض للفترة التى وقفت عندها سيرة الظاهر بيبرس ، وليس هذا وحده هو دليلنا على مكان هذه السيرة التاريخى من باقى السير وإنما تؤيدنا فى هذا دلائل أخرى » .

« من هذه الدلائل أن سيرة الظاهر لا تنتهى إلا وقد أقام قلاوون قاعة

لذعر والفداوية ، وأصبح لهؤلاء المقدمين الذين اشتهروا بالفروسية والمهارة والحيل مكان معترف به فى بلاط سلطان مصر ، وكثر القتل والذبح بين سلاطين المماليك . بينما تبدأ سيرة على الزيبق بوجود هذه القاعة ، قاعة الزعر ، وغيرها من القاعات للمقدمين ، ويشتد الصراع بينهم ، كظاهرة مجتمعية مسلم بها » .

ويوضح عمر الدسوقى فى كتابه « الفتوة عند العرب » أن مظاهر القوة والبطش والحيل والخداع والغدر كانت من السمات المميزة للقائمين على الحكم من المماليك ، بحيث لا يتولى أمور السلطنة فى مصر إلا من كان أكثرهم قوة وخداعاً وغدراً ، ويظل كذلك إلى أن يظهر من هو أقوى منه فيقصيه سواء بالاغتيال أو العزل ويحل مكانه ، وهم فى مجموعهم فى نظر الشعب المصرى مجموعة من اللصوص ، وقطاع الطرق ، يتسابقون على السيطرة والنفوذ وسرقة بعضهم البعض ، ويبطشون بمن يقف فى طريقهم أو يدرك حيلهم . ولذلك كان من الطبيعى أن يتسلح الشعب بالدهاء والحيلة والمراوغة والزئبقية حتى يتجنب أية مواجهة قد تؤدى إلى أوخم العواقب . فقد ضاع الأمن والاستقرار والقانون والنظام ، وأصبحت اليد العليا للبطش والغدر والحيلة والخداع والمهارة فى اللصوصية لا فرق فى ذلك بين رجل وامرأة .

فقد تولى أحمد الدنف زعيم اللصوص مقدم درك بغداد ، ثم تغتصب منه دليلة المحتالة هذا المنصب بحيلها ومكرها ، لكن على الزيبق ، الذى تفوق على لصوص مصر وشطارهم ، يقتنص المنصب من دليلة

بعد أن تولى درك مصر . ويصل إلى قمته فى الدهاء والحيل حتى يصد غيره من المحتالين واللصوص عن منصبه الأثير . ومقدم الدرك هو رئيس الشرطة والمحافظ على الأمن ، مما يذكرنا بالمثل الشعبى « حاميها حراميها » . وفى هذا يقول محمود رزق سليم فى كتابه « عصر سلاطين المماليك » إنه ليس أكثر من هذا سخرية من الجهاز الحاكم ، الذى يبدو فريسة بين أيدى اللصوص .

ويحدد فاروق خورشيد بداية سيرة على الزيبق من تواجده فى مصر ، إذ أن اسمها هو « سيرة على الزيبق المصرى بن حسن رأس الغول » وتحكى قصة الصبى الصغير على بن حسن رأس الغول الذى هزم مع أحمد الدنف فى بغداد من دليلة المحتالة التى استطاعت بالدهاء والمراوغة والجرأة أن تبز المقدم أحمد الدنف مقدم درك بغداد ورجاله من الفرسان والعياق أمثال شحادة أبو حطب وحسن شومان وحسن رأس الغول أبو بطل هذه السيرة ، فيهربون جميعا بأرواحهم إلى الاسكندرية ماعدا حسن رأس الغول الذى ينزح إلى القاهرة ، ويتزوج من فاطمة بنت الشيخ نور الدين قاضى الفيوم . لكن مقدم درك القاهرة ، صلاح الدين الكلبى ، يتربص به منذ اللحظة الأولى ويتمكن من قتله بحيلة غادرة ، وبعد موته بأيام تلد زوجته فاطمة ابنها على الذى يرث عن أبيه الحيلة والمهارة والذكاء والدهاء ، والشجاعة الفائقة بل الخارقة التى اشتهرت بها أمه بين فرسان عصرها .

ومنذ سن السابعة تتجلى هذه الخصائص فى على الزيبق الذى ينجح

فى التحايل على شيخ الكتاب والهروب من الدرس ، جاعلا من شيخه مجالا لسخريته لدرجة أنه يتسبب فى إجراء عملية جراحية لشيخه جعلته سخرية للجميع . وتدرك أمه أنه لن يصلح للدراسة ، فترسله إلى السوق ليجلس فى دكان جده ليتأدب بأدبه . لكن شقاوته تتضاعف لدرجة أنه لا يتسبب فى إغلاق دكان جده فحسب كما فعل بالكتّاب من قبل ، بل فى إغلاق السوق كلها ، لدرجة أنه قيل إن خان الخليلى قد رجمته الجن بالصواعق .

وتضطر أمه إلى إرساله مع عبدها للدرس فى الجامع الأزهر على أحد شيوخه ، لكنه يكرر دعاباته الثقيلة مع الشيخ ، ثم ينطلق مع العبد إلى الرميلة وقرة ميدان ليشهد الألعاب ، خاصة المصارعة التى تعقد عليها المراهنات ، وألعاب السيف والترس ، وضرب الرمح والدبوس ، وركوب الخيل ، ودواهى الحيل والخداع . هناك يجد على الزيبق نفسه . فقد وجد الأساتذة الحقيقيين الذين يمكن أن يلقنوه هذه الفنون الرائعة ، ويستطيع باستعداده الموروث أن يبز أشطرهم وأحيلهم وأشجعهم . وهو ما تحقق بالفعل . فمنذ ذلك الحين أطلقت عليه صفة « الزيبق » التى غلبت لقبه بعد أن عجز منافسوه عن الإيقاع به فى ألاعيبهم ومناصفهم وفخاخهم التى كان يروغ منها كما يتسلل الزيبق من بين الأصابع .

وتبلغ الثقة بالنفس والجرأة بعلى الزيبق لدرجة أنه يحاول الحصول على مركز صلاح الدين الكلبى مقدم درك مصر الذى حصل على منصبه بالدهاء والعياقة والشطارة . وتدور المعارك والمناصف والحيل بين الاثنين

حتى لتضج منهما القاهرة . وعندما يتورط على الزيبق مع فرسان الكلبى، تضطر أمه فاطمة إلى التدخل لإنقاذه من براثنهم ، وتهزمهم بشجاعتها وقوتها ، ثم تخبر ابنها بحقيقة نسبه ، وتوصيه بأن يسافر إلى أحمد الدنف بالاسكندرية ليصبح من غلمانه كما كان أبوه حسن رأس الغول . وتسلمه سلاح أبيه وأدواته من أسلحة وأدوات للتنكر وسلالم وبنج ونفط .

ويواصل فاروق خورشيد عرضه المشوق للسيرة فيقول إنه فى اللقاء بين على الزيبق وأحمد الدنف يتم تكريس على الزيبق واحداً من المقدمين ، كما يعلم بثأره عند صلاح الدين الكلبى ، الذى قتل أباه ، ويبدأ مرحلة جديدة فى حياته يخرج فيها من طور الصبيان والغلمان إلى طور الفتيان أصحاب البأس ، والرجال ذوى السمعة المخيفة فى مضمار الفروسية واللصوصية . ويعجز صلاح الدين الكلبى عن مقاومة على الزيبق الذى تصل به جرأته إلى سرقة خزانة بيت المال من بيت السلطان ، ويقر الكلبى بعجزه ، وينادى سلطان مصر بالأمان لعلى الزيبق ليضمه إلى رجاله الذين يحفظون الأمن ، ويطلب منه أن يثبت مهارته بإحضار صندوق التواجيه من المدينة المرصودة ، ويستطيع بعد مغامرات مثيرة أن يحصل على الصندوق . وتظل اختبارات الفداوية لعلى الزيبق حتى يثبت جدارته بمكانه ، فيتولى درك مصر ويبدأ فى رحلته إلى بغداد ، وفى طريقه يقوم بمغامرات تجعله يتولى درك الشام أيضا ، ثم تبدأ مغامراته مع دليلة المحتالة فى بغداد التى تتغلب عليه فيها أكثر من مرة ، ثم

يتغلب عليها هو آخر الأمر . ويتسلم درك بغداد أيضا ، ويعيد لأحمد الدنف ورجاله مكانتهم فى المدينة بعد أن كانوا قد فقدوها . لكنه أثناء مغامراته مع دليلة المحتالة ، يقع فى حب ابنتها زينب النصابة ويطلب الزواج منها ، فتغالى دليلة فى طلب مهر ابنتها ، وترسله إلى المهالك التى ينجو منها واحدة إثر الأخرى ، وتنتهى القصة بقتل دليلة وزواجه من زينب ، واعتزاله لدرك بغداد تاركا مكانه لابنه .

ويرى فاروق خورشيد أن على الزيبق لم يكن مجرد شخصية متفردة عاشت فى عصر معين ، بل اكتسب هذه البطولة الشعبية عبر العصور فى وجدان الشعب المصرى لأنه جسد مفهوم الثورة على النظام الفاسد ، وتسلح بنفس سلاح الخصم الذى يتمثل فى المهارة والدهاء والمراوغة والشجاعة والاحتيال والزئبقية ، وهو سلاح ذو حدين لأنه ليس وقفا على أصحاب السلطة من المماليك وحدهم ، وإنما هو تحت أمر كل من يستطيع أنه يستخدمه وأن يتفوق فيه . وأى فرد من أفراد الشعب يمكنه أن يكون على زيبق آخر إذا برع فى استخدام هذا السلاح فى مواجهة بطش الحاكم، وإذا لم تسعفه إمكاناته المتواضعة فى السير على نهجه ، فيكفيه أن يتوحد معه مؤمنا بأنه لابد أن تكون للظلم نهاية على يدى أحد أبناء الشعب المصرى . يقول فاروق خورشيد :

« وسيرة على الزيبق أيضا هى قصة هذا المجتمع الفاسد المتعفن ، عرضها المؤلف مستتراً وراء هرون الرشيد وأحمد بن طولون ، والأحداث الطريفة الضاحكة ، التى تخفى وراءها مرارة وإحساسا حادا بها يملأ

المجتمع حوله من تعفن ، فهى إذن عمل أدبى ثورى يخفى حقيقة ثورته إخفاء روائيا بارعا ، ولكنه لا يستطيع أن يخفى على الدارس أنه وثيقة اتهام فنية ، وصرخة احتجاج أخرجها ضمير الشعب المصرى ، ليصم فترة من أحلك فترات عمره » .

أى أن مؤلف « سيرة على الزيبق » نفسه كان زئبقيا مثل بطله تماما . فقد تستر وراء هرون الرشيد وأحمد بن طولون برغم أن أحداث السيرة لم تقع فى عهديهما ، ونسج الأحداث الطريفة الضاحكة التى تدعى الفكاهة والمرح والدعابة وخلو البال فى حين أنها تخفى وراءها مرارة وتنطوى على جهامة وتشاؤم نتيجة لأوضاع المجتمع المتعفن . أى أن المؤلف يظهر مالا يبطن ، ويبطن مالا يظهر ، وهذا هو جوهر الزئبقية . خاصة وأن صراع البطل ليس ضد قوى قدرية غيبية بل ضد مجتمع يشعر فيه أنه لا يملك شيئاً ، وأن حقه الطبيعى كابن لهذا المجتمع ، مهضوم وضائع ، نتيجة لاختلال القيم واهتزاز المثل . وهى قضية لا تحل بالتقوقع والاستسلام وإنما تحل بالتصدى لعوامل الشر فى هذا المجتمع ، وهزيمتها بنفس الأسلحة التى يتسلح بها هذا المجتمع لتحطيم الفرد فيه . يقول فاروق خورشيد :

« والواقع أن على الزيبق يعتبر منفذا لإحساس الهزيمة عند الفرد المصرى العادى الذى تدور أمامه مهازل تولى المماليك للسلطان واحدا إثر الآخر ، وكأنها لعبة وهو بعيد لا يشارك فيها . رغم أنها فى حقيقة الأمر تمس جوهر وجوده ، وتلعب بمقدراته ومستقبله ، وليس غريبا أن

يكون أبطال السيرة جميعا من المصريين تجمعهم سمة أساسية هى سمة الإحساس بالظلم ، والخروج للأخذ بالثأر وتحقيق العدالة .

« وسيرة على الزيبق هى السيرة الأولى التى يعقد لواء البطولة فيها لمصرى من أبناء الشعب وإن كانت بذور هذه البطولة تبدأ فى الظاهر بيبرس فى شخصية عثمان ابن الحبلى ، إلا أنها هناك تظهر على استحياء ، وإلى جوارها بطولات أخرى تفوقها أهمية ، لعل أخطرها وأهمها هى الظاهر بيبرس نفسه ، البطل المملوكى . أما فى سيرة على الزيبق فالمؤلف حريص على أن يفرد مكان الصدارة فى البطولة لأبطاله المصريين وعلى رأسهم على الزيبق نفسه . واذا كانت على الزيبق من الناحية الفنية أقل فى المرتبة عن غيرها من السير الأخرى من حيث ثقافة مؤلفها وإلمامه بالتاريخ والأحداث التاريخية ، ومن حيث قوة الحبك فى الأحداث الروائية ، إلا أنها أكثرها ارتباطا بروح المصرى القاهرى ابن البلد وأشدها تعبيرا عن موقفه ومشاكله ، وأولها تعبيرا عن إحساسه بذاته وكيانه ، ولعل أكبر دليل على هذا هو بقاء أسماء أبطال السيرة دون تغيير فى الأعمال الشعبية الأخرى كألف ليلة وليلة » .

ولذلك تكررت قصة على الزيبق فى الأحداث الفرعية أكثر من مرة ، مثل حكاية على بن أحمد الزيات ، ثم فى حكاية ابراهيم الأتاسى ، ثم فى حكاية على البسطى ، ثم فى حكاية عمر الخطاف ، وكلهم شبان مظلومون يركبهم عسف الولاة وطغيانهم ، ولا يجدون مجالاً لتحقيق العدالة ونيل حقوقهم ، إلا بشق عصا الطاعة ، واتباع كل أساليب

المراوغة والاحتيال والدهاء والزئبقية ، وارتكاب السرقات لتهديد الأمن ، وذلك لإثبات حقهم الضائع . والغلبة فى النهاية للأقوى والأجرأ والأكثر دهاءً واحتيالا ومراوغة وزئبقية . ولذلك عندما يعجز هؤلاء الشبان عن التغلب على على الزيبق ، فإنهم يصبحون من أتباعه ، ويتولى هو إحقاق حقوقهم ، وإجراء العدالة معهم .

وعلى الزيبق وأمثاله من الشطار والمغامرين الزئبقيين يتبعون مبدأ «مكره أخاك لا بطل » أو مبدأ « لا يفل الحديد سوى الحديد » . بمعنى أن لجوءهم إلى الاحتيال والدهاء والمراوغة والزئبقية ليس نتيجة لمثالب أخلاقية تعتور سلوكهم وتضعهم تحت مظلة الأفاقين والنصابين والمجرمين ، بل نتيجة لأن الحكام المماليك لم يتركوا للشعب المصرى سوى خيارين كليهما أمر من الآخر : الزئبقية أو الخنوع . ومع ذلك تظل الزئبقية بكل طاقاتها على المراوغة والتصدى والاحتيال والتحدى وإثبات الوجود بطريقة أو بأخرى أفضل بمراحل من الخنوع الذى يحمل فى طياته كل معانى الركوع والذلة والمهانة والسلبية . وإن كان الخنوع فى حد ذاته هو نوع من الزئبقية السلبية التى ميزت سلوك الشعب المصرى فى معظم عصور القهر والطغيان حتى يمر الإعصار بسلام ، فى حين كانت الزئبقية الإيجابية خاصية ملازمة لأبناء هذا الشعب الذين خرجوا منه ليتحدوا السلطات الحاكمة فى عصور ضاعت فيها قيم القانون والنظام والأمن والاستقرار . وقد تمكن هؤلاء الفتيان بالمراوغة والحيل والخداع وتحدى السلطات أن يجبروا الحكام على الاعتراف بوجودهم ، فتولوا

المناصب الرئيسية ، وحصلوا على المرتبات السنوية والمخصصات من بيت المال ، وفازوا بالقاعات والأماكن الفاخرة للإقامة فيها ، وساروا فى مواكب من أتباعهم ، لا تقل فخامة عن مواكب الملوك أنفسهم .

وكانت انتصارات هؤلاء الشطار والمغامرين بمثابة انتصارات للشعب المصرى الذى منحهم وجدانه ليتربعوا على عرشه من خلال السير الشعبية التى تناقلتها الأجيال المتتابعة .

ولم تكن الزئبقية قاصرة على الشطار أو الشعب فحسب ، سواء أكانت زئبقية إيجابية أم زئبقية سلبية ، بل كانت أيضا سلوكا مميزا لسلاطين المماليك وحكام مصر فى عصور عديدة . وإذا كانت الزئبقية تعد من الخصائص المميزة لأساليب السياسة التقليدية بصفة عامة ، فإنها فى العصر المملوكى كانت واضحة وضوح الشمس بحيث تحولت إلى المنهج الأساسى لحكم السلاطين ، فالسلطان المملوكى يبطش بخصومه دون رحمة إذا كان يملك القوة اللازمة لذلك ، لكنه يلجأ إلى المراوغة الزئبقية معهم إذا شعر بعجزه فى مواجهة حيلهم . وقد تتحول هذه الزئبقية إلى احتواء لهم حتى يأمن شرهم ويضيفهم إلى رصيده من القوة والسلطة والسيادة . وهذا دليل على أن الشخصية الزئبقية قد تركت بصماتها واضحة على الهرم الاجتماعى كله من قمته إلى قاعدته . وليس هناك عيب فى التسلح بهذه الشخصية إذا كانت قادرة على الحفاظ على كيان الشعب وسط كل هذه الأعاصير والتقلبات التى أثارها حكام أجانب لم يجدوا فى مصر سوى الدجاجة التى تبيض ذهباً . وقد كان من

الممكن فى الفترات والعصور التى أعماهم فيها الجشع والجبروت أن يذبحوها لعلهم يفوزون بالذهب كله ، لكن الدجاجة كانت مراوغة بما فيه الكفاية بحيث لم يستطيعوا الإمساك بتلابيبها وذبحها ، وقنعوا بالذهب الذى تبيضه لهم من حين لآخر .

وإذا كانت هذه الزئبقية قد شكلت حبلا لنجاة الشعب المصرى فى كثير من الأحيان ، إلا أنها لم تكن خيراً كلها ، إذ أن كفة سلبياتها ترجح كفة إيجابياتها . وهى إذا كانت ضرورية فى عصور القهر والبطش والطغيان والديكتاتورية للحفاظ على الكيان الإنسانى ، فإنها تتحول إلى عقبة كأداء فى عصر الحرية والديمقراطية التى تحتم الانفتاح الفكرى وإبداء الآراء وتبادل الأفكار دون حجر عليها أو خوف من عقاب أو بطش . فليس هناك أى داع للمراوغة واللف والدوران واللعب بالألفاظ والأفكار فى علاج أية قضية قومية أو حتى شخصية ، لأن هذا من شأنه إهدار للفكر والوقت والطاقة فى زمن أصبحت فيه هذه العناصر الثلاثة أغلى ما يملكه الإنسان المتحضر .

ومن المعروف أن الشخصية القومية تحتاج إلى أجيال متتابعة كى تتغير، وإن كانت تحتفظ فى جوهرها بثوابت راسخة عبر العصور . ولذلك تصبح الدراسات التحليلية التى تلقى الأضواء الفاحصة على سلبياتها وإيجابياتها ضرورة حضارية للتخلص من السلبيات ودعم الإيجابيات وترسيخها . ولا يمكن تشخيص السلبيات ومحاصرتها للقضاء عليها إلا من خلال هذه الدراسات التى يمكن أن توفر الجهد

والوقت فى انتظار أن تتفاعل العوامل الزمنية للتخلص منها . خاصة وأن هذه التفاعلات آلية لا عقل لها ، ويمكن أن تؤدى إلى تفاقم هذه السلبيات إذا لم تواجه الدراسات القادرة على تعريتها وتحليلها . والشعوب المتحضرة لا تتحرج من النقد الذاتى . فليس عندها ما تخجل منه طالما أنها تواظب على التخلص من سلبيات الضعف البشرى والنفس الأمارة بالسوء . وليس هناك شعب من الملائكة أو الأخيار ، ولكن هناك شعباً متحضراً يملك العقل الواعى الذى يسد الثغرات ، ويرسخ الإيجابيات ، ويتخلص من السلبيات ، ويعلو بالكيان الحضارى أولا بأول . وهو ما تسعى إليه هذه الدراسة فى مجال تحليل الشخصية الزئبقية وتعريتها للتخلص منها فى عصر الحرية والديمقراطية والمصارحة والمواجهة وتبادل الآراء والأفكار بلا خوف أو حرج أو حساسية . فالشخصية الحضارية تؤمن أن الخط المستقيم هو أقصر خط بين نقطتين، لأن الوقت من ذهب ، ولا تلجأ إلى الخط المتعرج إلا للضرورة القصوى . أما الشخصية الزئبقية فلا تعرف سوى المتاهات الجانبية والطرق المسدودة والدوائر المفرغة لحساسيات قديمة مترسبة من عصور سابقة ، لم يعد لها أى مبرر فى زمن أصبح فيه الوقت كالسيف .

الفصل الثانى
الزئبقية الإيجابيــة

الزئبقية ليست كلها شراً كما قد يتبادر للذهن لأول وهلة فهى فى خصائصها الإيجابية نوع من المرونة الفائقة القادرة على تجنب المشكلات الطاحنة وتجاوز العقبات التى يمكن أن تكون مهلكة .

وقد عالج هذه الخاصية الدكتور فاتيكيوتيس أستاذ العلوم السياسية بجامعة لندن فى كتابه « تاريخ مصر منذ محمد على » الذى صدر فى لندن عام ١٩٦٩ ، أى فى أثناء سنوات النكسة الشهيرة التى كانت مصر تمر بها ، وكأنه يؤكد بالدراسة العلمية الأكاديمية قدرة مصر على استيعاب هذه النكسة وتجاوزها من خلال مرونتها على تخطى الشدائد . وبالفعل بعد انتصار أكتوبر المجيد فى ١٩٧٣ ، أعاد طباعة كتابه عام ١٩٧٦ ليثبت للعالم كم كانت بصيرته ثاقبة !! ثم صدرت طبعة ثالثة للكتاب فى الولايات المتحدة عام ١٩٨٠ بعد استقرار السلام بين مصر وإسرائيل ، مما يدل على إيجابية مصر سواء فى الحرب أو السلام وهى الخاصية التى عرفت بها على مر تاريخها الطويل العريق .

يقول فاتيكيوتيس إن التاريخ قد برهن على أن شعب مصر يستوعب

ولا يذوب . فقد قاوموا استيعابهم فى إطار الشخصية القومية الوافدة مع امبراطوريات الفرس واليونان والرومان والبيزنطيين والعثمانيين ، بل إنهم صهروا الهجرات القادمة إليهم فى بوتقة الشخصية القومية المصرية بحيث ذابت فيهم . فالشخصية المصرية يصعب الإمساك بها وتوجيهها وجهة يريدها لها الآخرون . إنها قد تبدو فى بعض الأحيان وكأنها واضحة لهم وتسايرهم ، لكن بمرور الزمن يكتشف الآخرون أنهم هم الذين رضخوا ـ بلا وعى منهم ـ لمعطياتها الحضارية وتحولوا إلى جزء حى من نسيجها الحضارى . فهى تملك من المناعة الحضارية ما يمكنها سواء من لفظ الأجسام الغريبة اذا كانت مضادة لطبيعتها الحيوية ، أو استيعابها وهضمها إذا كان فى ذلك قوة دفع جديدة لها . قد يستغرق اللفظ أو الاستيعاب وقتا قد يطول أو يقصر ، لكن المرونة واللياقة والقدرة الإيجابية التى تتمتع بها مصر تمكنها فى النهاية من الحفاظ على شخصيتها القومية المتعددة المنابع والروافد والفروع والمصبات ، وإن كان الأمر لم يخل من أمراض وأعراض التصقت بها ، وبدت فى بعض الأحيان وكأنها أزمنت ، وفى مقدمتها أعراض الزئبقية السلبية التى سنتناولها فى الفصول القادمة من هذه الدراسة بالتحليل والتقويم على سبيل النقد الذاتى البناء الذى لا يخجل من السلبيات أو يحاول إخفاءها عن العيون أو يتركها حتى تستفحل ، بل يعريها ويكشفها حتى يستأصلها من جذورها .

ويوضح فاتيكيوتيس أن المصريين يملكون نوعا من المقاومة الداخلية الاجتماعية ضد أية محاولة لتغيير خصائصهم القومية ، حتى لو كانت

محاولة من حكومتهم نفسها . وهى مقاومة زئبقية فى أحيان كثيرة بحيث يصعب إصابتها فى مقتل ، ولذلك فإن الثورات الدموية فى التاريخ المصرى تكاد تكون نادرة ، لأن طبيعة الشعب المصرى طبيعة غير دموية لأنه عاشق للحياة ولاستمرارها بأى شكل من الأشكال ، وذلك حتى يقتنص الفرصة التى تتيح له أن يشكلها بالصورة التى يتمناها أو أقرب صورة لها .

وقد لا تكون هذه المقاومة رفضا مطلقا للتغيير ، لأن المصريين عندما يتغيرون فإن ذلك يحدث ببطء ، على أساس من الرضا الداخلى وليس الفرض من أطراف دخيلة ، وهذا هو السر فى بقاء مصر لآلاف السنين دولة واحدة لم تنشطر ولم تتشرذم ولم تعرف الصراعات الاجتماعية أو الفتن الطائفية أو الحروب الأهلية .

وهذه المرونة الحضارية الفائقة التى شخصها فاتيكيوتيس فى كتاب «تاريخ مصر منذ محمد على » ، أصبحت السمة المميزة لفكر الكثيرين ممن انشغلوا بدراسة التطور التاريخى لشعب مصر ، واتفقوا على أن ذوبان الهجرات فى إطار الشخصية المصرية ، ساعد على صهر المصريين جميعا فى عنصر عرقى واحد ، بخلاف ما حدث لغيرهم عندما وصلت موجات من نفس مصادر تلك الهجرات إلى دول أخرى ، لكنها ظلت وحتى يومنا هذا تحتفظ بدرجات متفاوتة من خصائصها الأصلية سواء فى مجال الثقافة أو التقاليد أو العرف أو العادات أو اللغة أو الدين أو المشاعر أو الهوية أو أية سمات أخرى خاصة . وفى بعض الأحيان ظل

الأمر على أنه انتماء ما إلى الدولة التى هاجر أجدادهم منها منذ مئات السنين .

أما فى مصر فقد انقطع فرع أقرانهم الذين جاءوا إلى مصر عن الشجرة الأصل ، ونموا مصريين خالصين بكل المقاييس ، فلم يعرفوا لأنفسهم وطنا غير مصر ، وتراثا غير التراث المصرى . ولذلك كانت مصر كدولة، هى نفس الدولة ، بنفس حدودها الجغرافية التى لم تتغير منذ وحدها الملك مينا منذ أكثر من خمسة آلاف عام . وهذه الاستمرارية التى تمتعت بها الدولة المصرية عبر آلاف السنين هى التى منحت نفس الاستمرارية للشخصية القومية للمصرى فى إطار خصائصه ومكوناته الأساسية التى عرفه بها العالم وفى مقدمتها المرونة ، والذكاء ، واللماحية، والتسامح ، والود ، والاستقرار ، والتجانس الطبيعى مع البيئة ، والتجانس البشرى مع الأفراد ، والتدين ، ونبذ العنف والتطرف . وأحيانا يبدو وكأنه تأقلم مع ظاهرة سلبية تتنافى مع طبيعته ، لكن الأيام أثبتت دائما أن هذا التأقلم كان بمثابة شحن للطاقات الكامنة فيه منذ آلاف السنين ، حتى يمتلك القدرة ويهيىء الفرصة كى يقضى على هذه الظاهرة السلبية . وليست هذه الدراسة سوى شحن من هذا النوع للقضاء على كل أعراض الزئبقية السلبية .

وهذه المرونة أو التأقلم أو التجانس أو غير ذلك من خصائص الشخصية المصرية كفيلة بالتصدى بل والقضاء على أية تيارات دخيلة تحض على العنف والتطرف والإرهاب ، والكراهية بين أبناء الأسرة

الواحدة ، والصراع الطبقى بين أعضاء المجتمع الواحد ، والتقاتل الفئوى أو الطائفى بين أبناء الوطن الواحد . فهذه كلها تيارات غريبة دخيلة لابد أن يلفظها المجتمع المصرى بصفة عامة . فقد كانت مصر قادرة دائما على حصار نيران الكراهية والعنف و إخمادها ، فى حين أن هذه النيران استطاعت أن تلتهم الأخضر واليابس فى بلاد أخرى .

ومن لا يدرك أبعاد الشخصية المصرية على حقيقتها ، قد يظن أن فترات كمونها هى فترات موت ، لكن سرعان ما تبهر مصر العالم أجمع بحدث تاريخى مصيرى ، لم يكن أحد يتوقعه على الإطلاق . وحرب أكتوبر المجيدة كانت خير دليل على هذه الخاصية المبهرة فى الشخصية المصرية برغم أية سلبيات قد تبدو هنا أو هناك بين حين وآخر. فلا خوف من هذه السلبيات طالما أن الوعى القومى لها بالمرصاد . ومن هذا المنطلق أصدر الدكتور أحمد عكاشة كتابه « ثقوب فى الضمير » مؤكدا على ضرورة تنقية الضمير العام من هذه السلبيات . يقول :

« إن على المجتمع أن يتوجه توجها عاما نحو تنقية ضميره العام ، حتى نخرج من أزمة الضمير الخانق سالمين ، ونطمئن على المستقبل الذى هو ليس ملكا لنا فى الواقع . . علينا أن ننطلق من نقاء الضمير الخالص إلى نقاء الضمير العام . فليكن قلقنا أولا لما يقع بيننا مخالفا للضمير العام ، ثم ليتطور هذا القلق ليغدو قلقا للضمير الإنسانى العام ، إذا ما وقع فى الأقاصى البعيدة ما يأباه الضمير الإنسانى » .

وفى بحث قيم للمجالس القومية المتخصصة عن بناء الإنسان

المصرى يتضح لنا بأسلوب علمى أكاديمى أن الإيجابيات فى طبيعة المصرى ، أكثر وأعمق من السلبيات ؛ فالمصرى ، برغم معاناته ، لا يزال إنسانا سليم الشخصية ، نقى الضمير ، قادرا على النهوض بالمسئوليات إذا وضع أمامها ؛ وترك ليواجهها بنفسه ، ثم إنه إنسان متحضر يعرف المقومات الحضارية ، دءوب على العمل إذا أتيح له المناخ النفسى والمادى والإدارى المناسب .

ولا شك أن روح أكتوبر العظيم تقتضى منا أن نستثمر هذه الإيجابيات فى طبيعة الشخصية المصرية القابلة للتشكل تحت كل الظروف ، والقادرة على استخراج أروع ما فيها إذا ما أتيحت الفرصة لذلك . فالإنسان المصرى عندما ينطلق بكل مقوماته الإيجابية ، يستطيع أن يتقمص روح العصر وإيقاعه اللاهث ، بل وفى إمكانه بلوغ مواقع الصدارة فى عالم اليوم . فهو على حد تعبير المجالس القومية المتخصصة فى دراستها لخصائصه الحضارية : اللبنة الأساسية فى بناء صرح مجتمع الحق والعدالة ؛ وهو المكون الأساسى للمجتمع ، وهو الفكر المخطط والقوى المنفذة لكل الأعمال سواء فى الحقل أو المصنع أو دور العبادة أو أجهزة الإعلام أو المؤسسات العلمية والتعليمية ، إلى غير ذلك من مجالات النشاط البشرى ؛ ومن ثم فإنه كلما صلح واستقام بناؤه، أمكن إقامة مجتمع الأمن والرخاء والرفاهية . وهو يملك من المرونة والذكاء والحيوية والقدرة على التجانس والتشكل والتأقلم ما يمكنه من القيام بكل هذه المهام الحضارية القومية على خير وجه .

وهذه الخصائص التى يمتلكها الإنسان المصرى ليست لها علاقة بالانتهازية أو الفهلوة من قريب أو بعيد . وهى التفرقة التى ركز عليها الدكتور حامد عمار فى كتابه القيم « فى بناء البشر » الذى يقول عن شخصية الفهلوى فى حياتنا الاجتماعية :

« إنها كانت وليدة الظروف السياسية والاقتصادية وأنواع المؤسسات والنظم التى ترتب كيان المجتمع ، وإنها ليست مقومات طبيعية فى المصرى ، نشأت ونمت وستظل هى مقوماته أبداً : وإنما هى قابلة للتغيير والتحوير ما دمنا نؤمن بما يقرره العلم » .

ولذلك يقابل الدكتور حامد عمار الشخصية الفهلوية بالشخصية المنتجة ، لأن الفهلوة ليست سمة عامة تطبع سلوكيات المصرى بصفة عامة بل هى مجرد عرض طارىء على مكونات الشخصية المصرية الأصيلة ، ولذلك ظل عرضاً هامشياً سرعان ما يختفى ويتلاشى عند نقاط التحول والمواقف القومية التاريخية . والدليل على ذلك وجود الشخصية الإيجابية الجادة التى تدرك أن الإنتاج وتطوره هو الحضارة واستمرارها . ولذلك أفرد الدكتور حامد عمار فصلا بأكمله لدراسة الشخصية المنتجة بكل ما تنطوى عليه من مرونة وذكاء وحيوية وتجانس وتشكل وتأقلم وانطلاق إلى آفاق العصر .

والفهلوة ليست خاصية من خصائص المصريين ، وإنما هى صفة التصقت ببعضهم على الأقل نتيجة لكثرة التعامل مع المحتلين تحت وطأة ظروف قاهرة كانت تجبره على أن يكذب أو يتظاهر أو ينافق أو

يقطع على نفسه عهداً هو أول من يعلم أنه لن يوفيه . وفى كتاب «عجائب الآثار» لعبد الرحمن الجبرتى قصص كثيرة عن دور الفهلوية فى أثناء الحملة الفرنسية على مصر ، الذين اكتسبوا مهارات عديدة فى اصطياد العساكر الفرنساوية والضحك عليهم والسخرية منهم وسرقتهم فى معظم الأحوال . وعندما ذهب الفرنسيون جاء الإنجليز واتسع نشاط الفهلوية باتساع نطاق الاحتلال البريطانى وتنوع جنوده فى أثناء الحرب العالمية الأولى على وجه الخصوص ، وانتشارهم فى أنحاء القطر . وظل النشاط الفهلوى مواكبا لوجود الاستعمار البريطانى . وعندما رحل الإنجليز بصفتهم آخر المحتلين لم تختف الفهلوة بل ارتدت إلى الداخل وأصبحت تمارس بين المصريين أنفسهم ، وإن لم تتسع بحيث تشكل ظاهرة تهدد المكونات الأساسية للشخصية المصرية .

ويقول الدكتور فؤاد زكريا فى حديث له مع سامح كريم فى جريدة «الأهرام» بتاريخ ٢١ فبراير ١٩٨١ :

« شخصية الفهلوى تحمل معنى مزدوجا : ففيها معنى الذكاء وسعة الحيلة ، ولكن فيها أيضا معنى المخادعة والبحث عن حلول للمشاكل بأسهل الطرق الممكنة . فمن طبيعة الفهلوى ـ كما يفهمه تراثنا الشعبى ـ أنه غير مكافح لا يبذل جهدا ، ويلجأ إلى التحايل والأساليب الماكرة ، بدلا من أن يلجأ إلى طرق شريفة . ولا شك أن الإعجاب بهذه الشخصية وغيرها من الشخصيات المماثلة ، علامة من علامات

الاختلال فى بنيان المجتمع ، وشكل من أشكال رد الفعل السلبى ، شأنه فى ذلك شأن النكتة والحشيش .

« على أننى لست معك فى أن ذلك خطورة على حياتنا الثقافية ، لأن هذه الشخصيات تنتمى إلى وجدان الشعب ، أكثر مما تنتمى إلى وعى المثقفين ، لكن الخطورة تكمن عند استخدام أساليب هذه الشخصيات فى ميدان السياسة ، عن طريق إقناع الدول التى تجرى حساباتها بأساليب علمية دقيقة ، بمظاهر القوة والثقة بالنفس ، اعتقادا بأن ذلك سيخيفهم ويدفعهم إلى التراجع ، وكلنا نعرف الآثار المدمرة التى ترتبت على هذه « الفهلوة » فى يونيو ١٩٦٧ » .

وعندما يطرح سامح كريم على الدكتور فؤاد زكريا اتهام بعض المؤرخين الشخصية المصرية بالاتكالية فى بعض الفترات من تاريخ مصر، وهو اتهام استندوا فيه إلى بعض أقوال الشعب المصرى وأمثاله ومأثوراته ،وقالوا إن الشعب المصرى دفع الكثير ـ فى قديم الزمان ـ بسبب اتكاليته ، يرفض فؤاد زكريا الرد على هذه التهمة لأنه لا يوافق عليها ، فلديه تحفظات كثيرة عليها :

« أولها : أن الشعب المصرى كانت له انتفاضات كثيرة رائعة عبر التاريخ ، فى نفس الوقت الذى كان يظن فيه أن روحه قد خمدت إلى الأبد .

ثانيها : أن هذه الاتكالية ليست صفة فطرية من صفات هذا

الشعب ، وإنما هى حصيلة عوامل الظلم الاجتماعى والقهر السياسى التى تراكمت على مصر عبر آلاف السنين .

ثالثها : أنه حين تكون الحكومة هى الآمرة الناهية أيام الفراعنة يكون من الطبيعى أن « يتكل » عليها الشعب فى كل صغيرة وكبيرة .

رابعا : أنه حين يتضح للشعب أن حكومته لا تهتم به فى الزمن القديم ، فعندئذ يتخذ اتكاله طابعا دينيا ، فيبحث فى السماء عن السند والعون الذى لم يجده فى الأرض » .

أى أن كل سلبيات الشخصية المصرية كانت نتيجة لعوامل الظلم الاجتماعى والقهر السياسى ، لكنها سلبيات كلها إلى زوال إذا ما كان الوعى القومى لها بالمرصاد . وإذا ما وضعنا هذه الزئبقية سواء أكانت إيجابية أم سلبية فى اعتبارنا ونحن نناقش شيوعيا مصريا على سبيل المثال، فإنه من السهل أن نجد فى داخله شخصا متدينا وربما نجد رأسماليا يؤمن بحرية الملكية الخاصة لأن المصرى يعشق الأرض ويرتبط بها ويحب أن يمتلكها . ولذلك يعانى المصرى مما يسمى بالازدواجية الفكرية التى تتمثل فى أكثر من مظهر أهمها أن هناك أقوالا تناقضها ممارسة فعلية ، فليس كل ما يقال يمارس . كذلك التغير النسبى فى معانى القيم والمفاهيم بالإضافة إلى التغير فى أهداف هذه القيم .

هذه القضايا الثلاث تمثل بشكل واضح مظاهر الازدواج الفكرى أو الزئبقية الإيجابية بالإضافة إلى ذلك الصراع بين القديم والحديث ، بحيث

تبدو الشخصية المصرية وكأنها بوتقة قادرة على صهر العناصر فى توليفة واحدة فى حين تظل بعض العناصر المتناقضة الأخرى بلا امتزاج ، ومع ذلك فهى تتعايش جنبا إلى جنب بدون صراع . فنجد إلى جوار أكبر مراكز البحث العلمى والمصحات والمراكز الطبية والمعامل ، تجار الوصفات البلدية والشعوذة التى تلغى تماما دور العلم . كما نجد المصرى الحاصل على أعلى الشهادات العلمية العالمية ويعمل فى مجالات تكنولوجية دقيقة ، لكنه فى الوقت نفسه يضع فى سيارته الفاخرة الحديثة خمسة وخميسة تقيها شر الطريق أو الأشباح التى تهاجم الناس فى الطرقات المهجورة .

لكنَّ هناك جانباً إيجابياً لهذه الزئبقية ساعد المصرى على تجنب الجمود أو التحجر أو التزمت أو التعصب ، وذلك لقدرته على امتصاص الأفكار الجديدة وإضافة ما يصلح منها إلى فكره القديم بتلقائية غريبة . وقد ظهرت هذه الخاصية منذ التاريخ القديم عندما تآلفت الديانات المصرية القديمة المختلفة ، وتهادنت داخل الشعب المصرى وفى هذا يقول العالم الجغرافى الدكتور محمد الصياد على صفحات جريدة «الأهرام» فى ٩ يوليو ١٩٨٢ :

« إن موقع مصر جعلها ملتقى عديد من الاتجاهات الثقافية التى أتتها غازية أو بطريق التجارة أو الهجرات البشرية واستطاع المصرى أن يهضم كل هذه الأفكار وأن يأخذ منها أحسن ما فيها وذلك لما يتمتع به

المصرى من تفتح فكرى وقدرة على الامتصاص وبلورة كل جديد داخل نفسه ».

فقد استطاع الإنسان المصرى بحكمته ومرونته وقدرته على الاستيعاب والتأقلم والتجانس فى مواجهة الظروف التاريخية االصعبة ، أن يحافظ على شخصيته القومية المتميزة ، وأن يطور تجربته الإنسانية الثرية ، وأن يسير على الدرب الصحيح فى الوقت المناسب ، وأن يرتفع حضاريا وفكريا إلى مستوى العصر والظرف التاريخى الذى يواجهه . فهو يملك القدرة على احتواء الانتقالة النفسية والفكرية والحضارية التى تجعل الإنسان يرى الحقيقة فى وجوهها المتعددة ، ويقبل الأضداد ، ويتعامل مع الغموض بلا قلق ، بل ويتقبل أن تكون هناك نتائج غير ثنائية للصراع ، أى أن يكون كل من الطرفين غالبا ، أو مغلوبا ، أو الاثنين معا بدرجات متفاوتة . بل إن الشعب بفطرته وتلقائيته وعفويته كان أسرع من مثقفيه وكتابه ومنظريه فى استجابته للأحداث المصيرية غير التقليدية كمبادرة السلام الذى قام بها الرئيس السادات فى نوفمبر ١٩٧٧ على سبيل المثال .

إن مثل هذه الانتقالة تحتاج إلى مرونة ونضج لم يتسلح بهما المثقفون فى بداية الأمر عندما بدت خطوة الرئيس السادات للسلام وكأنها بمثابة عمل فردى غير مفهوم ، أو على أحسن الفروض عمل زئبقى زاخر بالمكر والدهاء والخداع ، لأن الهدف كان فى نظرهم النصر الكامل مقابل الهزيمة الكاملة ، إما كل شىء أو لا شىء . هكذا كان يفكر من عاش

على الشعارات والنظريات ، ولم ينضجه الزمن أو الألم أو الخبرة ، أو الذى لم يخض الحرب ولم يتعامل مع الواقع . هكذا كانت حال أغلبية التقليدين ، وأصحاب الشعارات البراقة ، والحالمين بالمستقبل أو العائدين إلى الماضى ، أو بمعنى آخر هؤلاء الغائبين عن الحاضر .

وإذا كان ذلك ينطبق على أغلبية المثقفين والمتعلمين ، فإنه لا ينطبق على عامة الشعب الذى لا تمنعه أميته من المرونة والنضج والحكمة التى ترسبت فى عقله ووجدانه عبر العصور . فقد استطاع هذا الشعب الواعى بآفاق المتغيرات المرغوبة أن يستوعب خطوة السادات الشجاعة والغريبة وغير المتوقعة ، وأيده تأييداً مخلصا ، مهما ادعى المثقفون التقليديون أن هذا التأييد كان صادرا عن جهل أو طمع فى المساعدات الأمريكية التى ستجعل أرض مصر تفيض لبنا وعسلا !! صحيح أن هذا قد يشكل جزءا من الحقيقة والواقع ، لكن الجزء الذى قد يغيب عن بعض المثقفين هو أن هذا الشعب يملك حكمة هائلة وقدرة فائقة على استيعاب المتغيرات برغم الأمية وعدم التعليم أو الحصول على شهادات .

ولذلك يخطىء الكثيرون حينما يصفون الشخصية المصرية من خلال تراثها الشعبى بالغفلة والاستكانة والسلبية . فالشعب المصرى لم يفقد شعوره العميق بالأصالة والتفوق والتميز والقدرة على الاستيعاب والتأقلم والتجانس عبر العصور برغم كل الأقوال المأثورة والأمثال الشعبية التى تقرر اليأس من حتميات الواقع المرير مثل : « حكمت ع السبع راح للكلب حد الكوم . . لما صحى الكلب جال له السبع صح

النوم » أو « أنا أسألك يارب يا مجرى بحور العموم ، ترجع السبع يخطر زى عاداته ، وترجع الكلب ينبش فى تراب الكوم » . هكذا دائما كانت مصر السباع فى مواجهة الكلب الغريب الذى استطاع أن يتحكم فيها فى غفلة من الزمن ، وأن يذل سباعها . وهذه خاصية تنويرية لم يفتقدها الشعب المصرى طوال تاريخه ، فمرة يصف الغريب بالكلب ومرة بالفار ليؤكد وعيه بالأوضاع غير الطبيعية ، وأنه يوما ما لابد أن تعود الأمور إلى مجراها الطبيعى .

ومع سيطرة الحكام الأجانب والدخلاء على مقدرات مصر ، والمصرى يعى كل ما يدور على الساحة السياسية بعين ناقدة حادة ومرونة زئبقية عجيبة تطلق الأقوال المأثورة والأمثال الشعبية كسهام إلى قلب الحاكم دون أن يعرف من أطلقها عليه . وكأن الشعب بأسره قد تحول إلى كتلة واحدة صماء لا يمكن اختراقها أو مادة هلامية مراوغة يصعب الإمساك بتلابيبها أو بأطرافها . من هذه الأقوال أو الأمثال : « يوم الحكومة بسنة»، « حلنى » ، « ارشوا تشفوا » ، « البرطيل شيخ كبير » ، «حاميها حراميها » ، « أردب مشايخ وربع فلاحين » . فقد كانت الهوة عميقة واسعة بين السلطة والشعب وبالتالى افتقد الأمان والثقة تماما بينهما لدرجة أن « اللى يشرب من مرقة السلطان تنحرق شفته » .

ونظرا لأن الشعب المصرى كان بلا حول ولا قوة فى مواجهة بطش السلطان وجبروته ، فإنه لم يلجأ إلى الاندفاع والتهور والمواجهة التى يعلم جيدا أنه سيفقد فيها كل شىء بل وحياته نفسها . كان إحساسه

بالحياة، مهما كانت قاسية ومريرة ، أقوى من أى اعتبار آخر . ولذلك استعان على هذه القسوة والمرارة بالمرونة والمراوغة والإيمان بأن السماء لن تسمح باستمرار الظلم والبطش والطغيان . فمثلا كانت الحالة الاقتصادية فى منتهى القسوة ، فكان يزرع ويحصد ويقوم بعملية المكيال لغيره ، وهو وإن كان واعيا لكل ذلك إلا أنه كان يرفضه بلسانه كى يوجد ما يمكن تسميته برأى عام إذا استخدمنا هذا المصطلح الحديث ، لكنه لم يبلغ فى رفضه حد الثورة عليه من خلال المواجهة الدموية العنيفة : « الباب اللى يجيلك منه الريح سده واستريح »، « أردب ما هو لك ما تحضر كيله ، تتعفر دقنك وتتعب فى شيله » ، أى أنه لم يكن على استعداد أن يدخل فى معركة أو مواجهة وهو متأكد مسبقا أنه سيخسرها. ولكن ليس هذا جبناً منه بل حكمة تجنبه الخسارة بلا مبرر أو مقابل ، بدليل أنه يخوض بعض معاركه بجسارة يحسد عليها لو لاح فى الأفق أى مكسب مهما كان ضئيلا .

كانت عوامل المرونة والصبر والحكمة والتأقلم والتعايش والتجانس والاستيعاب والهضم والاستفادة من دروس الماضى قد منحت المصرى القدرة الفائقة على مواجهة ذلك الطوفان من المظالم المتتابعة . وهو ما يذكرنا بأسطورة صينية تحكى قصة الطوفان الذى غمر الأرض عند بدء الخليقة . فقد حاول بطل الأسطورة أن يقاوم الطوفان لكنه جرفه وغرق فيه . وعندما تولى ابنه أمر الطوفان لم يسر على نهج أبيه بل فكر فى مواجهته بتصريفه له فحفر الترع والقنوات والمجارى التى سار فيها

الطوفان ليروى الحقول والمزارع ثم يصب فى النهاية فى البحر . وهذا ما قامت به الشخصية المصرية فى مرونة وزئبقية باهرة ، فقد عملت دائما على تصريف الطوفان دون مواجهته والغرق بين أمواجه المتلاطمة .

وعندما شعر المصرى بضعفه إزاء القوى الخارجية الطاغية المتربصة به زاد تمسكه بالأسرة والقرية التى ينتمى إليها ، وفلسف الأوضاع القهرية المفروضة عليه بالإيجابية الوحيدة المتاحة له والتى تمثلت فى الحكم والأمثال والنداءات الأخلاقية علها تجد آذانا صاغية وتكون ما يمكن تسميته بالرأى العام . وقد اتخذت هذه الزئبقية مسارات أو قنوات لا يستطيع الحاكم الأجنبى أن يدرك توجهاتها بسهولة مثل تصريف الكبت والغضب من خلال السخرية ، والاستمساك بعصبية الدم ، وفلسفة الواقع وتبريره والخروج بمبادىء ونتائج أخلاقية تمنحه القدرة على الصبر وطول النفس ، والإحساس الدفين بدونية الحاكم الأجنبى برغم سطوته وبطشه . ولذلك لم يستطع حاكم أن يصل إلى النواة الصلبة الكامنة داخل الشخصية المصرية ، وبالتالى لم يستطع مجرد خدشها . ذلك أن هذه الزئبقية الظاهرية تحتوى على صلابة دفينة تحافظ على المقومات الأساسية للشخصية المصرية . ومن الصعب أن نجد شعبا سخر من كل ظالميه مثلما فعل الشعب المصرى . فهو يسخر مثلا من المسميات مثل « عمك شنطح جالك ينطح » ليسخر من الملتزم الذى يجبى الضرائب ويبطش بالفقراء ويواجهه قائلا « إيش تاخد من تفليسى يا

برديسى » و « إيش تاخد الريح من البلاط » ، ويسخر من الأغاوات : « زى بعجر أغا ما فيه إلا شنبات » .

كانت السخرية هى سلاح المصرى المفضل فى مواجهة كل أنواع التسلط والجبروت لأنها السلاح الزئبقى المراوغ الذى يصعب بل يستحيل الرد عليه . فيسخر من الحاكم المملوكى أو التركى قائلا : « آخر خدمة الغز سكتر » . والغز هم المماليك والأتراك ، وسكتر كلمة تركية معناها : «أخرج بره » ويسخر من المشايخ الممالئين للسلطة : « يفتى على الإبرة ويبلع المدرة » ، ويسخر من المحتسب : « زى المحتسب الغشيم زايد إرمى ناقص إرمى » ، فالمحتسب المملوكى أو التركى لا يعرف سوى أن يرمى المواطن أيضا لجلده ، و « الخباز شريك المحتسب » ، ويسخر من العسكرى : « إذا كان دراعك عسكرى اقطعه » . وعندما سقط فيل السلطان قلاوون فى قنطرة بولاق ، فإن الشخصية الزئبقية الإيجابية سرعان ما توجه سهام السخرية إلى قلاوون ذاته وهى تدعى الحديث عن الفيل : « وكنت يا فيل السلطان زين الوحوش ، وكنت بالإعجاب تزهو فى المخطرة وبقيت اليوم مطروح فى القنطرة » .

وتلعب عصبية الدم دورا حيويا فى التشرنق والتجانس والتعايش الذى تمارسه الشخصية المصرية فى مواجهة البطش الأجنبى . فالمصرى مؤمن إلى أبعد الحدود بالصلات الرحمية ومدى تكاتفها وتعاطفها وصمودها على المدى الطويل : « أنا وأخويا على ابنى عمى ، وأنا وابن عمى على الغريب » ، و « عمر الدم ما يبقى ميه » ، « عمر البطن ما

تجيب عدو » ، و « الكلب إن عض ودن أخوه ما يريلش » ، و « أخوك أخوك وابن الناس عدوك » . . الخ مما يدل على الحد الذى بلغه انعدام الأمان فى فترة من تاريخ مصر .

كما أغرم المصرى بالحكم والأمثال والنداءات الأخلاقية التى هى فى حد ذاتها مواقف حدية تجاه واقع مهترىء ، أجبر على التعايش معه لكنه يقاوم التوحد معه . فهو يتوحد فقط مع أبناء جلدته ومع المقولات الأخلاقية التى تعبر عن توجهاته الحقيقية : « اللى ياكل لوحده يزور » و « اللقمة الهنية تكفى ميه » و « من أمنك لم تخونه ولو كنت خاين » ، وغير ذلك من المقولات التى تبلور النواة الصلبة الكامنة داخل شخصيته عبر العصور ، والتى مكنته من معايشة الأعاصير والهزات ، فظل مفاخرا بأصالته وعراقته ، ومتجها بشعوره الدينى إلى الله أو إلى النبى أو إلى الأولياء الصالحين . ولم يتخل أبداً عن هذا الشعور الدينى بأن الله سيجد له مخرجا فى أحرج اللحظات .

ومن الواضح أن فترة الحكم المملوكى والتركى كانت أكثر الفترات التى أثرت فى الشخصية المصرية سواء بالإيجاب أو بالسلب . فقد كان المصريون بالمرصاد لكل الطغاة الذين فرضوا سطوتهم عليهم . وكانت الزئبقية والمرونة والتجانس والتعايش والتشرنق والتأقلم والسخرية والتهكم والهجاء من أهم الأسلحة التى استخدموها بمهارة فائقة فى مواجهة السخرة ، خاصة إذا كانت صادرة عن شخصية الحاكم نفسه . ويبدو أن الهدف الأساسى لشعراء تلك الفترة كان إضحاك الشعب من

حكامة وأمرائه ، سواء بالسخرية أو الاستهزاء أو المزاح أو الدعابة . كما شاعت الأزجال وأصبحت مصدرا من مصادر الفكاهة والضحك والهزل، وذلك لاستخدامها اللغة الدارجة والعامية التى يتعامل بها العامة فى حياتهم اليومية . ولم تكن الفكاهة والتهكم والسخرية قاصرة على الكتاب والشعراء الهواة أو المحترفين ، بل سرت بنفس القوة والحيوية على لسان جميع المصريين .

ولعل الأقوال المأثورة والأمثال الشعبية كانت خير تعبير عن هذه الزئبقية الإيجابية المتفجرة بالسخرية اللاذعة والتهكم الحاد والفكاهة التى تشيع التفاؤل ، وتفلسف كل ما يمر بالإنسان من محن وأزمات ومآزق ، وتنتقد كل مظاهر البطش والطغيان والجبروت والادعاء والزيف والاستغلال والانتهازية والخداع . والأمثال الشعبية الآتية تبلور الجوانب والملامح المتعددة لهذه الخاصية الأصيلة فى الشخصية المصرية :

- المال مال أبونا وجوم الغُرب طردونا .
- من عاشر القوم أربعين يوم صار منهم وصاروا منه .
- إن قابلك عدوك فى الخلا خاليه ، و إن جالك بيتك اوعى تفرط فيه .
- كل عقدة ولها حلال .
- عقلك فى راسك ، اعرف خلاصك .
- قلة العقل مصيبة .
- خير الأمور الوسط .

- الحلم سيد الأخلاق .
- هلك من اتبع هواه .
- الحيلة غلبت الشجاعة .
- اللقمة تنادى أكالها .
- اشتدى يا أزمة تنفرجى .
- ما ضاقت إلا وفرجت .
- صلح خسران ولا ميت قضية كسبانه .
- يتمسكن حتى يتمكن .
- العلم فى كل زمن له قيمة وثمن .
- المخوزق يشتم السلطان .
- اربط الحمار مطرح ما يقولك صاحبه .
- إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع .
- اصلاح الرعية أنفع من كثرة الجنود .
- اللى له ظهر ما ينضربش على بطنه .
- إذا عرفت اعرف الخيار تبقى من الناس الكبار .
- عادى أمير ولا تعادى غفير .
- اللى يقول أبو يا وجدى يورينا فعله .

- مش كل من لبس الحرير بقى سيد .
- الله يلعنك يا زمان خليت للندل كلام وجبت اللى ورا قدام وخليت السيد خدام .
- القوالب نامت والانصاص قامت .
- اللى ما يسمع كلام كباره ياما يجرى له .
- آدى الله وآدى حكمته .
- اللى مالوش حد له ربنا .
- الله هو الحافظ .
- يابخت من له يا شقاوة من عليه .
- اللى عند الله مايضعش .
- اللى ماتقدرش عليه حيل ربنا عليه .
- ربنا مع المنكسر جابر .
- الشكوى لغير الله مذلة .
- الله يجس النبض ويعطى الدوا .
- اللى اتكل على الله عمره ماخاب .
- الناس بالناس والكل على الله .
- ما عند الناس ينفد وما عند الله باق .
- اعمل الخير وارميه فى بحر جارى إن ضاع عند العبد ما يضعش عند البارى .

- اللى عند ربى قريب .
- اكتم سرك واشكى لربك .
- مالك مربى قال من عند ربى .
- اللى على الله ما يتحمل له هم .
- اللى سترها فى الأول يسترها فى التانى .
- اللى يستره ربه مايفضحوش مخلوق .
- اللى عليك اعمله والباقى على الله .
- ربنا عرفناه بالفعل .
- اسع يا عبد وأنا أسعى معاك .
- الله يسد باب ويفتح أبواب .
- الرب واحد والعمر واحد .
- اللى حبه ربه فرجه على ملكه .
- اللى ما يخاف من الله خاف منه .
- اللى ما يخاف من الله يا ويله يا ظلام ليله .
- اللى ياكل حلوتها يتحمل مرتها .
- مفيش حلاوة من غير نار .
- اللى ياكل العسل يصبر لقرص النحل .
- الإيد البطالة نجسة .

- اشتغل الجمعة والعيد ولا تتحوجش لخوك السعيد .
- الله ماله شغله تشغله يفتح الباب ويقفله .
- إذا دار عليك الزمان ديره على أكتافك .
- إن مال عليك الزمن ميل على دراعك .
- إن نام لك الدهر ماتناملوش .
- احنا ساعيين والرب يعين .
- اتعب ترتاح .
- اتعب على الشىء تلاقيه .
- اركب الأهوال تكسب أموال .
- اشتغل بقلبك ولو كان سخرة .
- اشتغل لحد ماتكل ولا تستحمل الذل .
- اذا كان رزقك ضيق حطه فى ماعون واسع .
- أكل العيش يحب الخفية .
- اضرب عصاتك واجرى وراها .
- الجرى نص الشطارة .
- اللى ما يقعد فى الكوم ويتعفر ييجى فى الجرن ويتحسر .
- المال اللى ما تتعب فيه اليد ما يحزن عليه القلب .
- يا طالب المال لوقف الحال ، العمل عمال والمال همال .

- اللى بيشتغل أحسن من الواقف .
- حجر داير ولا سبع نايم .
- الايد التعبانة شبعانة .
- اعمل وافتخر واللا اقعد واتعفر .
- أعمل حاجتى بايدى ولا أقول للكلب يا سيدى .
- اللى من إيده الله يزيده .
- العمل عبادة .
- الاجتهاد نص العبادة .
- رأس الكسلان بيت الشيطان .
- اللى ياكل بلاش ما يشبعش .
- اللى ما يقضى حاجته بإيده ياكتر تنكيده .
- أكل ومرعى وقلة صنعة .
- قعدة على قعدة فات النهار واتشمتت الأعدا .
- كل شىء فى أوله صعب .
- اللى له عين وراس يعمل زى ماتعمل الناس .
- اللى ما يخدم فى صغره ما يشوف خير فى كبره .
- الاعتماد على النفس أساس النجاح .
- الاستقامة رأس النجاح .

- اتق الله فى صنعتك ولو كنت حرامى .
- أبطىء فى الوعد وأسرع فى التتميم .
- قبل ما تعمل شىء اقرا عواقبه .
- اللى يحسب الحسابات فى الهنا يبات .
- اللى يخاف م العرسة ما يربيش كتاكيت .
- طولة البال تهد الجبال .
- طولة العمر تقطع الشدايد .
- ان فاتك عام اترجى غيره .
- اللى ابتدا بده يكمل .
- صاحب بالين كداب .
- يوم لك ويوم عليك .
- ما محبة إلا بعد عداوة .
- مش كل الوقايع زلابية .
- دنيا لا تخلى الراكب راكب ولا الماشى ماشى .
- المحتاج يركب الصعب .
- حمارتك العارجة تغنيك عن سؤال اللئيم .
- اسأل مجرب ولا تسأل طبيب .
- اللى ياكل على ضرسه ينفع نفسه .

- الجايات أكثر من الرايحات .
- اللى ترافقه وافقه .
- اللى ما يستناك استناه .
- بدل ما أقول للعبد يا سيدى ، أقضى حاجتى بايدى .
- خدلك من كل بلد صاحب ولا تاخد من كل بلد عدو .
- إن غدا لناظره قريب .
- الدنيا زى الغازية ترقص لكل واحد شوية . .

* * *

هذه الأمثال الشعبية والأقوال المأثورة وغيرها تبلور كل ملامح الزئبقية الإيجابية فى الشخصية المصرية بكل ما تحمله من قيم الصبر ، والجلد ، والكفاح ، والإصرار ، والمواصلة ، والصمود ، والمرونة ، والاحتمال ، والثقة بالله ، والاعتماد على النفس ، والتفاؤل بالغد مهما كانت المشاق والمتاعب والظلمات ، والصبر على المكاره ، والنظرة الثاقبة لحقائق الأمور، واحترام قيمة العمل فى ظل أقسى الظروف ، والذكاء والدهاء فى مواجهة دنيا زئبقية لا تعرف سوى أخلاق « الغازية » وتحتاج إلى نفس المهارة الزئبقية فى التعامل معها .

لكن فى مواجهة هذه الإيجابيات التى حافظت على هذه النواة الصلبة داخل الشخصية المصرية عبر العصور ، كانت هناك سلبيات زئبقية عديدة اعتورت بعض ملامح هذه الشخصية العريقة ، لكنها توقفت عند الملامح الظاهرية ولم تستطع أن تمس هذه النواة الصلبة التى تألقت

دائما فى مواقف التحول القومى والمصيرى . فإذا كان الجوهر بهذه الأصالة والصلابة والصدق والعراقة فلماذا لا يكون المظهر بنفس الخصائص ؟!

إن الفصول القادمة من هذه الدراسة هى فى حقيقتها محاولة لإلقاء الأضواء الفاحصة على هذه الملامح التى لا تضرب بجذورها داخل الشخصية المصرية ، بل تكاد تكون أقنعة متغيرة بتغير الأحوال . وإذا كان جوهر هذه الشخصية مثيرا لإعجاب وانبهار الآخرين قبل المصريين أنفسهم ، فلماذا لا نسقط هذه الأقنعة المصطنعة المفتعلة لكى نرى ـ ويرى العالم معنا ـ جوهرنا الأصيل الذى حافظنا عليه وحافظ علينا عبر آلاف السنين ؟!

الفصل الثالث

الزئبقية الفكرية

إذا كانت الزئبقية مقبولة فى الحياة اليومية من البشر العاديين الذين قد يعجزون عن إيجاد وسائل أخرى للحفاظ على معيشتهم واستمرارها ، فإنها لا يمكن أن تكون مقبولة من المفكرين والمثقفين الذين يدركون جيدا بحكم فكرهم وثقافتهم ضرورة ترسيخ القيم الإنسانية الحضارية التى بدونها لا تقوم لأى مجتمع متحضر قائمة . فإذا كانت زئبقية الإنسان العادى قاصرة على محيطه الشخصى ، وبالتالى فإن آثارها التى يمكن أن تكون سلبية تظل محصورة داخل هذا النطاق الضيق ، فإن زئبقية المفكر أو الكاتب تمتد لتشمل كل من يتأثرون به سواء عن طريق التعامل معه أو القراءة لما يكتبه . وقد يكتشف بعض القراء زئبقيته فيصرفون النظر عنه ، لكن هذه الزئبقية الذكية الخبيثة المراوغة يمكن أن تنطلى على جمهور كبير من القراء . وبرغم أنه من كلتا الحالين فاقد لمصداقيته إلا أن تأثيره السلبى على العقل الجمعى لا يمكن إنكاره .

ولا جدال فى أن الثقافة ليست مجرد معلومات يحشو بها الإنسان عقله ، بل حياة متكاملة لها جانبها النظرى والعملى ، ولها بعدها الفكرى

والسلوكى . ولذلك فإن نظرة المفكر أو المثقف إلى الحياة وسلوكه فى المجتمع يختلفان أو لابد أن يختلفا اختلافا بينا عن الإنسان الذى لم ينل حظه من الثقافة . وإذا أصيب الكاتب بالزئبقية والتلون وأصبح من الآكلين على كل الموائد واللاعبين على كل الحبال ، فإن ثقافته تتحول إلى سلعة لمن يدفع أكثر . وبذلك يصبح الكاتب الزئبقى ، النفعى ، الوصولى ، الانتهازى الذى يبيع فكره وعقله وروحه من أجل المزيد من الثروة والجاه ، أحط شأنا من العاهرة التى تضطر إلى بيع جسدها حتى لا تموت من الجوع .

وإذا كان مصدر الثقافة والفكر يتمثل بشكل محدد فى الكتب وغيرها من أدوات المعرفة التقليدية ، فإن المثقف يستمد من حياته اليومية وتجاربه العملية مصادر أخرى للمعرفة ، فهو لا يعيش فى برج من عاج يفصله عن منابع الحياة ومجريات الأمور ، لأنه يكون رؤيته أو رؤياه من حصيلة التفاعل بين الثقافة النظرية والثقافة العملية . وهى رؤية تشكل فكره وسلوكه بحيث يتحول الفكر والسلوك إلى وجهين لعملة واحدة هى : الثقافة الإنسانية البناءة والمطورة للحياة . لكن هذا الجانب الأخلاقى أو السلوكى أو العملى فى حياتنا الثقافية ، لا يلتفت إليه الكثيرون على أساس أن المفكر أو المثقف هو من يعرف أكثر وكفى . وكان نتيجة هذه النظرة القاصرة أن أصبح الميدان الثقافى نهبا لكل زئبقى، انتهازى ، وصولى ، يسعى بالمداهنة ، أو مسح الجوخ ، أو الوقيعة ، أو الدسيسة، أو المراوغة ، أو الصراع ، أو التمسكن كى يحقق

أغراضه الخفية أو المختفية تحت شعارات براقة يرفعها بصفته المثالى ، الطيب ، المحب لخير الجميع .

إن الفكر الإنسانى والحضارى الأصيل يحتوى فى صميمه على توجه أخلاقى حاسم ، بدونه يتحول المفكر أو المثقف إلى فاوست جديد ، يبيع روحه للشيطان من أجل الثروة والمنصب والجاه والرفاهية ، أى طمعا فى ثواب أو خوفا من عقاب . ولا شك أن الزئبقية الفكرية والثقافية تسرى مسرى الدماء فى العروق عندما تنفصل الثقافة عن السلوك ، والفكر عن الأخلاق ، عندئذ تصبح المصلحة الشخصية هى الوسيلة والغاية ، وهى مصلحة تحتاج دائما إلى تكيف سريع مع المواقف التى تواجه المثقف الزئبقى . واستيعاب فورى لما تتطلبه هذه المواقف من أهداف مرغوبة ، وتصرف وفقا لمقتضيات تحقيقها ، ومثقف من هذا النوع لابد أن تصبح عنده الثقافة أو الفكر مجرد وسائل لتحقيق غايات أبعد ما تكون عنها . وبدل من أن يصبح منارة تشع على كل من يتصل بفكره ، يتحول إلى مخلوق طفيلى يعيش على امتصاص خيرات الآخرين سواء أكانوا واعين مرحبين بهذا لغرض فى نفوسهم ، أم كانوا غير واعين بذلك لانشغالهم بالاستمتاع بالضرب على أوتار نرجسيتهم المشدودة .

فالزئبقى قادر على التلون السريع والضرب على أوتار الآخرين المفضلة لديهم بمهارة فائقة . فهو يتعامل بمنتهى البساطة والسلاسة سواء مع الملائكة أو الشياطين وذلك لدرايته العميقة بنقاط الضعف البشرى ، وممارسته لأساليب المسايرة السطحية والمجاملة العابرة . فليست لديه

أحاسيس نابعة من قلبه سوى تلك التى تدور حول مصلحته الشخصية. والكاتب الزئبقى لا يكتب شيئا من قلبه ووجدانه لأن الكتابة عنده مثل قطعة القماش عند الترزى الذى يقوم بتفصيلها طبقا لرغبة الزبون الذى هو دائما على حق . بل إن الترزى الواثق من نفسه يجبر الزبون أحيانا على الأخذ برأيه على سبيل الاستفادة بخبرته ودرايته الفنية والمهنية ، أما الكاتب الزئبقى فلا يعلن أبداً عن آرائه أو مشاعره الشخصية التى قد تتناقض مع ما يهدف إليه من مكاسب ومغانم .

ولا شك أن نظرة القراء العاديين تجاه الكتاب تتشكل طبقا للمثل الذى يضربه هؤلاء المثقفون لهم . فإذا كان مثلا سيئا فسوف ينصرف عنهم الناس أو يسير بعضهم على نهجه وبذلك تتحول الثقافة إلى عنصر مدمر وهى منه براء . وإذا كان مثلا طيبا فإن الثقافة تتحول إلى شعلة تهدى الناس إلى طريق الخير والتقدم والازدهار والحضارة . ومن ثم تنتشر االثقافة لأن عدواها ستنتقل من شخص إلى آخر نظرا لوجود القدوة الحسنة . فالثقافة الإنسانية الرفيعة هى قدوة فكرية وعملية فى المقام الأول . ومفكر بلا مبدأ هو قارب بلا دفة ، قد ينجح فى ركوب كل موجة جديدة بل وقد يصل إلى قمتها ، لكن هذا النجاح لابد أن ينتهى فى لحظة من اللحظات لأن افتقاره للدفة لابد أن يوقع به فى النهاية بين الأمواج المتلاطمة .. وعندما يتعرى على حقيقته أمام الناس فلن يرحمه أحد منهم . ولابد أن ينطبق عليه المثل القائل بأن المخادع يستطيع أن يخدع كل الناس بعض الوقت ، أو بعض الناس كل الوقت ، لكنه لا

يستطيع أن يخدع كل الناس كل الوقت ، مهما كان حاذقا فى خداعه .

وطبقا لهذا المعيار فإنه إذا ارتفع المستوى الثقافى للمجتمع ، ارتفع مستواه الأخلاقى بالتالى لأن الثقافة والأخلاق وجهان لعملة واحدة هى الحياة الإنسانية الحضارية بمعنى الكلمة . فالمثقف الحق يشعر أن هموم عصره ومجتمعه هى همومه الشخصية ، وعليه أن يشارك بعلمه وفكره وثقافته فى التخلص منها بقدر الإمكان ، وإفساح الطريق لآمال وتطلعات جديدة . ولذلك فالأخلاق الزئبقية والثقافة الحقة نقيضان لا يجتمعان ، وإذا كانت ضرورة المعيشة تضطر بعض الناس إلى اللجوء إلى الزئبقية فى حياتهم اليومية ، فإن المثقف أو المفكر أو الكاتب لا يمكن أن يسمح لهذه الزئبقية لتتسلل إلى فكره وسلوكه ، وإلا انتفت صفته تماما .

ولكن المثقف الزئبقى يحتاط عادة لكل ما من شأنه أن يعرى أهدافه الخفية . فهو يبالغ فى تأكيد ذاته ، وإظهار قدرته الفائقة فى شتى المجالات ، والإيحاء المستمر بقدرته على التحكم فى الأمور ، وغير ذلك من السلوكيات التى قد يفهمها البعض على أنها ثقة بالنفس فى حين أنها محاولات مستمرة ومتجددة لتغطية إحساسه الدفين بعدم الثقة بالنفس ، وسعيه الدائم لتقدير المواقف من وجهة نظره الشخصية البحتة ، واطمئنانه إلى العمل الفردى وتجنبه العمل الجماعى بقدر الإمكان ، وليس هذا بسبب الأنانية فحسب بل لتأكيد ذاته وعدم الاحتكاك بغيره حتى لا يفتضح أمره من ناحية أخرى .

ومع ذلك فإن المبدأ القائل بأنه لا يصح إلا الصحيح يقف للمثقف

الزئبقى بالمرصاد . فإذا كان البشر يحكمون على بعضهم بعضا بنوعية النتيجة العملية لسلوكهم ، فمن باب أولى يكون حكمهم على المثقف الذى قد لا يستوعب البعض فلسفته الثقافية والفكرية ، لكنهم قادرون فى الوقت نفسه على استيعاب معنى سلوكياته وأخلاقياته تماما ، إذ أنها الجانب المادى الملموس الذى يمكن للإنسان أن يدركه مهما كانت ثقافته ضحلة أو حتى منعدمة . وبحكم أن المثقف أو المفكر أو الكاتب غالبا ما يكون فى دائرة الضوء أو فى دائرة الوعى عند الآخرين ، فإن حركاته وسكناته ترصد بصفة مستمرة ومتجددة ، بل ويحاسب عليها من أبسط الناس . وهذا ما نلحظه عندما يوصم الأمى فى مصر المثقف بقوله :

« مش عيب عليك تبقى أفندى متعلم ومتنور وتقول الكلام ده برضه» .

والظاهرة الغريبة فى مصر أنه على الرغم من انتشار الأمية ، فإن الوعى الحضارى والقيمى الذى ترسب فى وجدان المصرى منذ آلاف السنين ، لا يزال يؤثر فى سلوكه ويرشده إلى سواء السبيل بأسلوب أقرب إلى الأسلوب الغريزى العفوى التلقائى بل واللاواعى . من هنا لعبت الثقافة المتوارثة والمكتسبة دورها فى بناء الإنسان المصرى . صحيح أن لها سلبياتها وثغراتها ، لكن إيجابياتها مكنته على مر العصور من التفرقة بين الغث والسمين ، بين الزيف والأصالة ، بين الجوهر والمظهر ، كما مكنته من الوعى العميق بحقيقة الأخلاق الزئبقية بصفتها اتخاذ الفرد بصفة عامة والمثقف بصفة خاصة مواقف سياسية أو فكرية لا يؤمن بها ، فى

سبيل تحقيق أو حماية مصالح أنانية شخصية . وبعبارة أخرى تعنى الانتهازية أن يغير الفرد مواقفه السياسية وآراءه العقائدية حسب تغير الظروف ، ومن أجل أن ينسجم مع الظروف الجديدة أملا فى أن يحصل على مصلحة شخصية ، أو أن يحافظ على مصلحة شخصية موجودة ، دون أن يكون مؤمنا بالمواقف التى يتخذها أو الآراء التى يبديها .

فالزئبقية ليس لها موقف صريح ، ولا تعتقد فى صواب أو صحة مواقفها ، بل هى غير صريحة فى عملها السياسى أو الثقافى أو الفكرى ، أى أن مواقفها وآراءها لا تنبع من معتقداتها . ولذلك ليس لها مذهب أو عقيدة سياسية أو نظرية محددة من أى نوع . فهى تقول اليوم ما تنقضه غدًا ، وتقول غدًا ما تتخلى عنه بعد غد . كما أنها تعرب عن آرائها لا بشكل عقيدة متكاملة ، بل بشكل مواقف عملية يومية طبقا لما تأتى به الرياح . قد تتبنى الزئبقية عقيدة معينة ، ولكن تبنيها هذا ليس إلا موقفا نفعيا انتهازيا ، وليس فكريا لأنها سرعان ما تتخلى عن كل المذاهب دفعة واحدة إذا ما تغيرت الظروف وإذا ما اقتضت مصلحتها الشخصية ذلك .

وكل التوجهات الفكرية ، حتى الإقطاع والقبلية والديكتاتورية ، عندها ما تقدمه للمجتمع ، إلا الزئبقية فليس عندها ما تقدمه للمجتمع ، ولا يمكن أن تكون عاملا إيجابيا فى مرحلة من المراحل ، ولا تطرح نفسها كنظام بديل لأى شىء ، وإن كانت تطرح نفسها كقطاع يسعى إلى تحقيق المغانم الآنية بطريقة أو بأخرى . إنها لا تهتم بتنظيم

المجتمع ، بل بتحقيق مصالح أنانية فقط . فالإقطاع مثلا قدم نظاما محددا وعمليا للإنتاج الزراعى ويمكن أن يكون تقدميا إذا كانت المرحلة التى سبقته هى مرحلة الرق والعبودية . والقبلية احتوت الفرد ومنحته الأمان والقدرة على الانتماء وتنمية قدراته . والديكتاتورية سعت إلى تنظيم المجتمع وإن كانت قد جارت على كيان الإنسان . لكنها كانت كلها مراحل تحمل بعض المزايا التى يستفيد منها المجتمع ككل وليس الفئة المهيمنة على الأمور وحدها .

لكن مثل هذه المزايا لا وجود لها على الإطلاق فى الزئبقية كتوجه فكرى وسلوكى معين . فهى ليست طبقة اجتماعية ولا فئة مهنية ولا تشكل أى قطاع محدد من المجتمع . إنها تجمع من كل الطبقات وجميع المهن لأنها غير قاصرة على طبقة معينة أو مهنة معينة بل يمكن أن تترشح من جميع فئات المجتمع وأن تخرج من جميع التوجهات الفكرية والمذاهب والعقائد والأحزاب السياسية . إن الشىء الذى يجمعها ليس انتماؤها لطبقة أو مهنة أو حزب بل مصالحها الذاتية وأهدافها الخفية ، أى أنها ظاهرة فردية وصفة تخص التكوين الأخلاقى للفرد . صحيح أن الأفراد الذين تتجلى فيهم هذه الصفة الشخصية يمكن أن يتجمعوا فى شكل هيئة أو حزب أو تكتل . ولكن ذلك لا يجمع منهم طبقة اجتماعية أو تكتلا مهنيا أو فئة عقائدية فهم مجرد تجمع مؤقت عابر تقتضيه الظروف .

وإذا كانت مواقف الزئبقى من الأوضاع السياسية والتيارات الفكرية والاتجاهات الاجتماعية شىء مؤقت قابل للتغيير ، كذلك تجمع

الزئبقيين فى هيئة أو حزب أو تكتل ، شىء مؤقت وموقف عابر يزول بزوال الظروف التى اقتضته ، ويمكن أن يرجع مرة أخرى بنفس الشكل أو بشكل آخر إذا ما استجدت ظروف أخرى وهكذا . فالزئبقية فى تكتلها وتحالفاتها متلونة من وقت لآخر ، وقادرة على التشكل فى صور وأشكال لا نهاية لها ، والزئبقى الذى يغير موقفه من الاتجاهات الفكرية والنظريات العقائدية والأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية حسب تغير مصلحته الشخصية ، مستعد لتغيير موقفه من الآخرين حسب تغير تلك المصالح أيضا . فهذا هو القانون الذى يحكم علاقات الزئبقيين ببعضهم . إنه قانون التغيير الدائم والتلون المستمر . فالزئبقى بطبيعته لا يحتمل الاستقرار الذى يضع الأمور فى نصابها ويقننها لأنه ينشد دائما التغيرات والتقلبات التى يجد فيها الثغرات التى يمكن أن يتسلل منها . والشىء الثابت الوحيد عنده هو مصلحته الشخصية الأنانية وكل ما عدا ذلك متغير . فالمجتمع حوله عبارة عن متغيرات مستمرة فى نظره ولابد أن تصبح فى خدمة العنصر الثابت الوحيد الذى يتمثل فى أهدافه الاستراتيجية الخاصة به . ومع هذه المتغيرات يغير مواقفه وآراءه وأساليب حياته وصداقاته وعلاقاته بالآخرين ، بل كل توجهاته من وقت لوقت أو حتى من ساعة لساعة ، إذا ما اقتضت ذلك مصلحته الشخصية التى لا تغيب عيناه عنها أبداً ، فهو ابن لحظته الراهنة .

وفى البلاد التى تعانى من الأمية والمرض والفقر ، بشكل الوسط

الثقافى مصدراً هاما لعناصر الزئبقية . فالفئة المثقفة فى هذه البلاد كثيرا ما تخرج منها نوعيات من المثقفين تحاول أن تستغل ثقافتها لتحقيق مصالح أنانية شخصية . إن الثقافة العالية ، فى مجتمع يغلب عليه الجهل والأمية، وتقل فيه الخبرات النادرة ، تساعد أولئك الأفراد ذوى الاستعداد الزئبقى منذ البدية على استغلال سلاح الثقافة والفكر الذى يتفننون فى إشهاره ، لتحقيق مصالح شخصية على حساب الآخرين من مجموع الشعب . ولا يعنى هذا أن الثقافة تحمل فى طياتها بذورة الزئبقية ، بل يمكن أن تصبح عاملا مساعدا لمن تتوفر فيه ميول التسلق الزئبقى . فالثقافة والفكر عاملان يمكن أن يغريا بظهور هذه الميول وتوظيفها .

والفئة الزئبقية من المثقفين والمفكرين ، مؤهلة بحكم وعيها الثقافى ومنظورها الفكرى لأن تنشط فى السياسة كى تصول وتجول بعد ذلك فى ميادينها . ففى إمكانها أن تستوعب المبادىء والتوجهات والتيارات السياسية ، وأن ترصد رغبات السياسيين وميولهم ، وأن تضرب على الأوتار ذات الصدى المسموع والمؤثر ، وأن تلعب على الحبال التى يمكن أن تؤدى بها إلى أهدافها الشخصية ، وأن تؤيد هذا الاتجاه ، وتتخلى عنه غدًا ، وتتبنى هذا المذهب وتتجاهله غدًا ، لتتبنى مذهبًا آخر حسب مقتضيات المصلحة الخاصة .

والزئبقية فى صفوف المثقفين والمفكرين يمكن أن تنتشر وتسرى بين مختلف فئات المجتمع وطوائفه وطبقاته . هناك مثلا فئة الموظفين الذين يلتفون حول كل حكومة ، ويؤيدون كل وزير ويتملقون كل حاكم .

وهؤلاء يسعون دائما وراء الترقيات والمنافع المادية والرواتب والمخصصات من خلال التقرب من الحاكم الموجود وركوب الموجة السياسية الراهنة . وهناك أيضا فئة المهنيين الذين يستغلون مهنهم لتحقيق مصالحهم على المستوى السياسى . مثل المحامى الذى يشتعل حماسا لمهنة المحاماة لثقته أنها يمكن أن تكون بابا مفتوحا على مصراعيه للمجد السياسى من نيابة أو وزارة ، خاصة وأن دراسة القانون خير مؤهل للاحتراف السياسى .

وهناك فئة محترفى الثقافة والفكر كالكتاب والشعراء الذين يخوضون فى بحر السياسة بكلماتهم وآرائهم وأفكارهم ، ويتقلّبون من يوم لآخر ، مستعملين ثقافتهم وأقلامهم لفلسفة هذا المذهب أو تفنيده أو تبريره ، ولتأييد هذا الحزب أو معارضته أو مساومته . لكن الكارثة أن تأثير محترفى الثقافة والفكر على الجماهير أخطر وأعمق وأعم من تأثير الفئات الأخرى كالموظفين وغيرهم من المهنيين الذين ينحصر تأثيرهم فى دائرة من يتعاملون معهم ، أما مهمة التنوير الثقافى والفكرى فمنوطة برجال الثقافة والفكر الذين إذا تخلوا عنها جريا وراء مطامعهم الشخصية ، فإن التعتيم سرعان ما يحل محل التنوير ، وتدخل الجماهير فى متاهات من الضياع الفكرى والتخبط الثقافى .

ولا شك أن جميع هذه الفصائل من المثقفين والمفكرين الزئبقيين تحاول أن تتخذ من العمل السياسى وسيلة لتحقيق مصالحها الشخصية التى لا يشترط أن تكون اقتصادية بحتة ، بل قد تكون معنوية أيضا

كالنفوذ والشهرة . ومن الملاحظ أن أساليبها لا تقف عند أنماط معينة بل تتطور دائما لتواكب التوجهات والسلوكيات الجديدة ، مما يجعل وسائلها حديثة ومرنة ولبقة ومراوغة دائما . فلا يليق بدهائها ومكرها وذكائها ولماحيتها أن تلجأ إلى الأساليب الفجة والبدائية التى يسهل كشفها وتعريتها .

لكن لابد من التفريق بين الزئبقية فى المجتمع المتخلف الراكد ، والزئبقية فى المجتمع المتقدم المستقر . ففى جميع مراحل التحول الاجتماعى يمكن أن تتواجد الزئبقية باعتبارها صادرة عن ضعف فى الوازع الأخلاقى وخلل فى الضمير الاجتماعى ، وتلك ظواهر يمكن أن توجد فى كل المراحل وفى كل المجتمعات حيث يسعى أفراد ذوو أنانية طاغية تسيطر عليهم ، فتدفعهم لتحقيق مطامعهم الشخصية التى لا يرون غيرها . من هذه الناحية لا يوجد هناك فرق بين المجتمع المتقدم والمجتمع المتخلف ، أو المجتمع فى مرحلة التحول . لكن عندما يكون المجتمع متقدما ، تسيطر عليه قيم اجتماعية راسخة فإن المجال يضيق أمام الزئبقية التى تجد فرصا أكثر وأكبر فى المجتمع المتخلف حيث يفتقر الناس إلى الوعى الثقافى الذى يمكنهم من تعرية الحيل الزئبقية وكشفها .

وهذه الاختلافات الحضارية تبلور الفروق الجوهرية التى تميز موقف المثقف العربى عن موقف زميله فى البلاد الأخرى . فالمثقف الأوروبى على سبيل المثال ، يملك طول النفس والثقة بالنفس ويرى أن قيمته

الحقيقية تصدر عن قيمة الموقف الذى يتخذه والمبدأ الذى يتبناه ، بصرف النظر عن عناصر الخطأ أو الصواب أو التناقض فيه . فهو يختار موقفه بعد تأمل بعيد عن أية ضغوط ، ويتبنى مبدأه عن اقتناع غير خاضع لأية إغراءات ، لأنه يرى أن الرضوخ لأية ضغوط أو إغراءات لا يعنى سوى انحراف عن رسالته وضياع دوره كمثقف ومفكر . أما المثقف العربى بصفة عامة فينساق وراء انفعالاته وفى بعض الأحيان يسعى لرصد الموجة الراهنة أو المحتملة حتى يعد نفسه لركوبها ، ولذلك تتناقض مواقفه وتوجهاته الفكرية . ويصبح معرضا للابتزاز أو التهديد أو الإغراء ، ويسهل تحويله من وجهة فكرية إلى نقيضها ، واستغلال مواطن ضعفه وحيرته نتيجة لتعدد ولاءاته واهتزازها وترددها ، وبحثه الدائم عن سيد ليتبعه ويعيش فى ظله ويستفيد منه .

أما ولاء المثقف الأوروبى فموجه للثقافة ولنفسه التى يرى فيها مركز وجوده ومحوره . وهو يدرك أن الجدية والكفاءة والإتقان عناصر لابد أن تتوافر فى عمله . فلكل شىء ثمن لابد أن يدفع . فالقراءة العميقة الشاملة ، والتحليل المتأنى الدءوب ، والتفسير العلمى المنطقى ، والمقارنة بين مختلف عناصر الحياة ، والمتابعة الواعية لأحوال الإنسان المعاصر ، وغير ذلك أسلحة لا يمكن أن تقع من يد المثقف أو المفكر الأوروبى ، فهى فى النهاية أدواته فى الإبداع والتفوق . وربما كان مثل هذا المثقف محظوظا لأنه يتمتع بمناخ ديمقراطى يسمح له بكل هذه الممارسات الحرة والانطلاق نحو آفاق ثقافية وفكرية جديدة .

أما المثقف العربى الزئبقى فيريد أن يحصل على كل شىء دون أن يخلص لأى شىء أو يدفع ثمنه لإحساسه أن المعايير الإنسانية والفكرية والثقافية مهتزة وغير متبلورة ، وأن السبل المستقيمة قد لا تؤدى إلى ما يرغب فيه ، ولذلك يتحتم عليه أن يعرف من أين تؤكل الكتف ؟! وبالتالى فقد دوره الحضارى أو أصبح دوره مقلوبا ، لأنه فى أغلب الأحوال موظف لا صاحب رسالة ، تحت أمر كل من يمكن أن يستفيد منه . يلبى كل طلب ، ويركب كل موجة مواتية ، ويردد كل صيحة رائجة ، ويؤيد القوى ويقدم له فروض الطاعة فى حين يخذل الضعيف وربما داس عليه فى مسيرته الزئبقية . يمدح الحى ويهجو الميت . ينافق السلطة وينافق المجتمع ، ويخدم من يدفع أكثر ، وغير ذلك من العيوب التى ترسخت فى الفكر العربى عبر قرون متتابعة . فمنذ أصبح للعرب دولة تحول المثقف العربى شاعرا كان أو كاتبا أو فقيها إلى خادم للسلطان، يكتب له الرسائل ، ويصوغ له الفتاوى ، وينظم المدائح فى حقه والأهاجى فى حق أعدائه . ومن هنا كانت الزئبقية التى ميزت أفكاره وتوجهاته وسلوكياته ، فهو دائما فى انتظار كيس الذهب .

ولكى ننصف المثقف العربى إلى حد ما ، لابد أن نقرر أن تبعية المثقف لأصحاب السلطة كانت تقليدا سائدا فى كل الثقافات منذ فجر الحضارة الإنسانية وحتى بدايات عصر النهضة حين أصبح المثقف الأوروبى منتميا إلى طبقة جديدة تابعة لطبقة االنبلاء ، ثم تطورت من خلال بناء مؤسساتها ، وبلورة ثقافتها ، وترسيخ مثلها العليا ، ودفاعها

عن حريتها وكيانها حتى استطاعت فى نهاية القرن الثامن عشر أن تقضى على طبقة النبلاء ذاتها ، وتتولى بالفعل زمام السلطة فى بلادها ، وتعلن إيمانها بمبدأ الحرية فى الفكر والعمل ، وفى الاقتصاد والسياسة . وقد أدت هذه الحرية الوليدة إلى قيام الأحزاب والنقابات وغير ذلك من المؤسسات التى تحمى المصالح الفردية أو الطبقية أو الفئوية أو الطائفية . ثم بزغ دور المفكرين والمثقفين فظهرت دور النشر والصحف والمسارح كمؤسسات شعبية قادرة على التصدى للدولة إذا ما تنكبت سبل الطغيان والقهر ، مما أدى بدوره إلى ازدياد عدد المفكرين والمثقفين الذين تعاملوا مع المؤسسات الثقافية الواعدة التى حررتهم من ذل الحاجة وعبوديتهم للسلطة الحاكمة .

أما المثقف العربى فلم يتمتع بهذه الامتيازات المبكرة لأن العصور المظلمة امتدت فى بلادنا إلى مطالع القرن التاسع عشر . فلم تظهر عندنا طبقة جديدة تحمل قيما جديدة فى مجالات التقدم الروحى والمادى كما حدث فى أوروبا . ولذلك لم تعرف الديمقراطية طريقها إلينا لأن العلاقة بين السلطة والشعب ظلت كما هى ، خاصة وأن السلطة العثمانية التى حكمت بلادنا حتى نهاية القرن الثامن عشر لم تزل نتيجة لتفاعلات اجتماعية وصراعات داخلية ، وإنما انهارت أمام بطش الغزاة الأجانب . أما السلطة الجديدة التى حلت محلها فقد خرجت من معطف السلطة القديمة بعد أن دفعها الطموح إلى أن تستقل بنفسها وتمارس نفس الاستبداد .

وكانت النتيجة أن الثقافة العربية الحديثة التى ولدت فى منتصف القرن الماضى بعد الانفتاح على أوربا ، ظلت محصورة فى إطار سطوة السلطة التى كانت الآمر الناهى فى كل شىء . فلم تكن هناك المؤسسات الشعبية أو الكيانات الديمقراطية التى يمكن الاعتداد بها .

وهكذا كتب على المثقف العربى أن يظل فى العصور الحديثة موظفا من موظفى الدولة كما كان شأنه فى كل العصور . فهو لا يستطيع أن يعيش من قلمه وإبداعه ، وحتى لو استطاع ذلك فى فترة ما من فترات حياته فهو لا يضمن أن يستمر على هذا الوضع طوال حياته ، ولذلك لابد من سند أو ضمان يحميه من غوائل الحياة وتقلبات الزمن . وليس هناك سند أقوى وأضمن من الدولة التى يمكن أن تسبغ عليه حمايتها ورعايتها وفضلها إذا ما لبى طلباتها . من هنا تنبع الزئبقية الفكرية التى يمكن أن تتراوح بين الدعاية الذكية اللماحة أو البوق الأجوف المباشر لتوجهات الدولة . أما قيم الحرية والديمقراطية فتتوارى فى الأركان المظلمة للعقل الباطن عند المثقف الذى يشعر بعجزه عن دفع تكاليفها .

ولعل هناك مفارقة صارخة فى العالم العربى قل أن نجد لها مثيلا فى أية منطقة أخرى من مناطق عالمنا المعاصر ، وتتمثل فى أن المثقفين والمفكرين العرب يفاجأون أحيانا بأن الحكومة فى بلادهم قد قررت السير على النهج الديمقراطى فى عصر أصبحت فيه الديمقراطية مطلب كل دول العالم بدليل سقوط النظم الشمولية ذات الحزب الواحد والرأى الواحد . ويبدو أن الذين لم يتعودوا الحرية ، قد يعجزون عن ممارستها

عندما تجىء إليهم فى عقر دارهم ، بل وقد تثير انزعاجهم وتوترهم لأنهم رتبوا أمورهم على أوضاع مختلفة تماما . ولذلك لا يهدأ لهم بال حتى يعثروا فى بعض البلاد المجاورة على طاغية يدينون له بالحمد والتسبيح . فليست هناك ضرورة ملحة لممارسة زئبقيتهم فى مواجهة الحرية الجديدة طالما أن الديكتاتوريات المجاورة كفيلة بإشباعها . وتتجلى المفارقة المضحكة المبكية فى أن هؤلاء المفكرين الزئبقيين يملكون القدرة على الممارسة الديمقراطية حين لا يوجد أى خوف منها ، وفى الوقت نفسه يتحولون بقدرة قادر إلى مهرجين فى بلاط الطاغية المجاور للحصول على أكبر قدر ممكن من المغانم الآنية واللاحقة . فهم فى بلادهم معارضون أشداء لا تأخذهم فى الحق لومة لائم ، ولا يرجعون قيد أنملة عن مبادئهم الصارمة ، ولا يعرفون سوى الصرامة والجهامة لإحساسهم بثقل الرسالة الحضارية الملقاة على عاتقهم أما عندما ينتقلون إلى بلد الطاغية المجاور فلا يعرفون سوى الابتسام ، والظرف ، وخفة الدم ، وروح الدعابة ، والتأنق فى اختيار ألفاظ المديح والتقريظ للطاغية الذى لن يجود الزمان بمثله . وليس من المعقول أن نطالب المثقف الذى يمارس البطولة فى بلده الديمقراطية ، أن يمارسها فى بلد الطاغية المجاور بأن يقاتله ، لكن ليس من حقه أن يرفه عنه بدلا من المهرج على حد قول أحمد عبد المعطى حجازى فى جريدة « الأهرام » فى ١٧ أكتوبر ١٩٩٠ .

وإذا كان المثقف يتمتع بهذا القدر الهائل من الزئبقية ، ففى إمكانه أن ينتقل بها من جانبها السلبى إلى جانبها الإيجابى ، وذلك بتجنب الصدام

مع السلطة وتكريس حياته لفنه وفكره وإبداعه دون أن يؤدى به خوفه من العقاب أو طمعه فى الثواب إلى التمسح بالسلطة والركوع عند عتباتها طلبا لرضائها عنه . أما المثقف الذى لا يستطيع أن يكبح جماح زئبقيته وتلونه وانتهازيته وتسلقه وسيره على جثث الآخرين ، فعليه بالتوجه إلى ميادين أخرى تعتبر فيها هذه الخصائص نوعا من النجاح والتفوق والانتصار على الخصوم ، أما مجال الثقافة والفكر فيعتمد فى خصائصه على معايير الصدق والكذب ، الحق والباطل ، المصارحة والمراوغة . ولا شك أن قيم الصدق والحق والمصارحة لا تمت بصلة من قريب أو بعيد إلى مكاسب المادية الآنية التى تعد الهدف الأسمى لأنشطة حياتية أخرى . فالثقافة لا يمكن أن تكون قوة فعالة مؤثرة إلا اذا كانت صادقة وحقة وصريحة .

ومن الواضح أن الثقافة جوهر وروح ومعنى قبل أن تكون شكلا ومظهرا . بل إن شكلها ومظهرها يتجليان فى سلوكيات المثقف وأخلاقياته ، وتتوقف قدرتها على الإقناع ، على المدى الذى يقومان فيه بتجسيد قيم الثقافة ومعانيها . فلا خير فى مثقف يلتهم الكتب ويعيش فى بطونها ، ثم يعجز عن ترجمة ثقافته العميقة إلى سلوك وقدوة أمام الآخرين . كذلك لا خير فى مثقف يتشدق بالمثل العليا والقيم الإنسانية من واقع ثقافته ، ثم يفاجأ الناس بأن يسلك فى اتجاه مضاد لها تماما .

إن الجوهر الأخلاقى فى الثقافة جزء عضوى لا يتجزأ عن كيانها والمثقف الزئبقى الذى يتصور أو يتوهم أن فى إمكانه تجاهل هذا الجوهر،

لا يدرك أنه بهذا يخرج نفسه من كوكبة رواد الثقافة الذين شكلوا خريطة الفكر الإنسانى عبر العصور ، ذلك أن إثبات الوجود بالفكر والثقافة مسألة شاقة قد تأخذ عمرا بأكمله لحدوثها ، وتستدعى عملا دؤوبا صامتا لا يتحدث عن نفسه إلا وقد وصل إلى نتيجة تنير أبصار المواطنين وبصائرهم فى قضية مصيرية معينة .

وعندما يدخل الزئبقيون فى طريق مسدود ويفشلون فى إثبات وجودهم ، إذ أن النجاح ليس شرطا ضروريا للزئبقية ، فإنهم يصرخون معلنين عن وجودهم على صفحات الصحف سواء أكانوا كتابا أم صحفيين أم مديرين أم كبار موظفين أم هـواة كتابة متطوعين أم قراء وجدوا أن لا مانع بالمرة ، مادامت الكتابة قد أصبحت لا تكلف إلا ورقة وقلما ، وأى رأى يعن ، وفى أى موضوع . فليست هناك مشكلة فى أن يحولوا أنفسم من قراء إلى كتاب لأن من يكتبون ليسوا ـ فى نظرهم ـ أفضل منهم . ولذلك اختلط الحابل بالنابل وضاعت المعايير مما أدى إلى ازدهار الزئبقية الثقافية التى يمكن أن تتحول إلى دار للإفتاء فى كل شىء . وهى الظاهرة المرضية التى وضع يوسف إدريس يده عليها فى مقالة بعنوان : «مولد . . الكتابة فى مصر » فى جريدة « الأهرام » بتاريخ ٢٤ يناير ١٩٨٣ حين قال :

« فى الآونة الأخيرة ، وبجانب الانفجار السكانى ، حدث انفجار فى كم الأبواب الصحفية والكتابية ، ونفس المطالبين بتحديد الأبناء والنسل، تنتشر أبوابهم وكلماتهم ، على هيئة انفجار كتابى فى أكثر من

مكان فى الصحيفة الواحدة أحيانا وبأكثر من طريقة ، وكأن همَّ كل منهم أن يستحوذ على أكبر عدد ممكن من « البوتيكات » الكتابية ، فبقدر مالديه من بوتيكات يتأكد ماله من نفوذ ، ويتربع كقاضى الأمور الكلية « بتاع كله » يصدر الأحكام بلا نقض ويشرع لكل شىء فى مصر، يعلم « يسرا » كيف تتقمص الدور ، ويزجر « عدوية » ، ويؤنب رئيس الحى ، ويثبت أنه أول من نبه إلى خطورة الاقتصاد فى نمو المجتمع ، ويتطوع برأى غير مسبوق فى أحقيتنا (لطابا) ، وينعى على بحيرة السد العالى سمكها الذى أهمل صيده حتى بلغ حجم الديناصورات ، وبالمرة يؤكد أن لا عودة لعهود السجون والمعتقلات ، ولا عدول عن القطاع الخاص ، وأن الأهلى أثبت كالعادة أنه حديد ، وأنه يستغيث بمحافظ الجيزة ليعالج مواطنا على نفقة الدولة . والكل يفعل هذا ولسان حاله بل وكثيرا ما ينهى كلامه قائلا : « ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد » أبلغ من؟ الحكومة ؟ وكأنه يتصور فعلا أن هناك مواطنا اسمه الحكومة يسمع ويعى وكأنها ليست أجهزة لا نهائية العدد والاختصاصات لها طول قطارات البضاعة وقدمها وانفصالها عن بعضها البعض ، ولكنه يصر أنه نبه الكائن البشرى الذى اسمه الحكومة ، وأنه ، ها هو ذا ، يعيد تنبيهه، وسجل فى لوح التاريخ وعلى مرأى ومسمع من ملايين المواطنين الشهود ، أنه كتب ولم يتحرك أحد ، وأنه بثاقب نظره ، أثبت الحالة ، وأنه أرضى ضميره ، والعيب أبداً لم يعد عيبه » .

ولذلك يحدد يوسف إدريس الرأى الحقيقى بأنه : الكتابة القادرة على

تغيير رأى عام سائد ربما لنقيضه ، أو فتح عين المجتمع على منظور لوجوده لم يكن يراه أو يتصوره من قبل . وليس ذلك النشاط المحموم الذى يمارسه بعض الكتاب الذين ينتهزون فرصة الضجيج والازدحام وخاصيتنا القومية فى ضعف الذاكرة من هول ما تكدس ويتكدس فيها ، ويعدد للناس مواقفه الخطيرة مع الشعب ضد الملك قبل الثورة ، ومع الديمقراطية ضد الطغيان وعصر عبد الناصر ومراكز القوى ، وأنه ، هو ولا أحد غيره الذى وقف ضد السادات وأخطائه ، ويفعل هذا بجرأة يحسد عليها ، وكأنه يخاطب أطفالا لم يروه يؤله الملك ويعادى الشعب ، ويمجد عبد الناصر والثورة وبالذات فى المواقف التى كان الكل يعارضونها ، ويسبح بحمد السادات . وأهو (مولد) وصاحبه الشعب يتصور الناس أنه غائب أو ساذج غير فاهم ، أو ناسٍ ، ولو عرف هؤلاء أن أحدًا لم ينس من مواقفهم شيئا لما استمرأوا سلوكهم الزئبقى بهذا الشكل الفاضح . إن شعبنا من أذكى شعوب الأرض ، وذكاؤه هو الذى يدفعه إلى ترك الناس يزورون ويكذبون لأنه لا تنطلى عليه مثل هذه الأكاذيب لإيمانه أنه فى النهاية لا يصح إلا الصحيح .

لكن المشكلة الحقيقية تكمن فى أنه وسط هذا الضجيج والازدحام لا يلحظ أحد عمليات تبادل المنافع التى يقوم بها ويجيدها الزئبقيون الانتهازيون الذين يصفهم الدكتور زكى نجيب محمود فى مقال له بعنوان « النفخة الكذابة » (الأهرام ٥ ديسمبر ١٩٨٢) بأنهم نكبة على أوطانهم

وشعوبهم ، لأنهم كثيرا ما يحجبون الحق بباطلهم ، إلى أن يشاء الله للحق ظهورا وانتشارًا فهذا النوع :

« يدعى ما ليس له . يدعى العلم وهو من العلم برىء براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، ويدعى الأدب وهو فى حياته لم يكتب أدبا ولم يقرأ أدبا ، ويدعى ، ويدعى ، وقد ينطلى علينا ادعاؤه فنسلمه أمورنا ، ويكون بعد ذلك ما يكون » .

ولذلك فإن الزئبقية الثقافية تعنى بالضرورة غياب وجهة النظر التى تعتمد على التفاعل الحى بين العناصر الثقافية المكتسبة داخل المفكر وبين الخصائص التى تشكل الحياة المعاصرة على أرض الواقع . يقول زكى نجيب محمود فى حديث له مع دينا ريان فى باب « أخبار الكتب وحكايات الأدب » الذى كان يقدمه نبيل أباظة على صفحات « أخبار اليوم » ؛ فى أول ديسمبر ١٩٧٩ ، إن المثقف صغيرا كان أو كبيرا ، من علامته أن يكون عنده وجهة نظر . . ومن لم تكن لديه وجهة نظر خاصة يحكم بها على الأشياء من حيث المفاضلة والأهمية وغير ذلك مهما كثرت معرفته فهو يعرف لكنه ليس مثقفا . ولا شك أن الضياع الذى تعانى منه أجيال الشباب راجع إلى مقومات وجهة النظر الضائعة فى الثقافة المصرية . فلم يعد لنا هدف أو وجهة نظر محددة :

« وبناء على كل هذا فلا وجود إذن لوجهة النظر المستبطنة فى إنتاجنا الثقافى بمعنى أننى لا أطلب من صناع الثقافة ـ ونحن لابد أن نفرق فى الثقافة بين من يصنعها ومن يتلقاها ـ وأنا أركز هنا على صناعها الذين

يجب أن يكون عندهم وجهات نظر . . وأنا لا أريد منهم أن يقولوا : أنا وجهة نظرى كذا وكذا . . فمن الجائز جدا أنه لا يعرفها . ولكن الناقد هو الذى سوف يظهرها له لأنه سيحلل إنتاج العصر ، ويقول فى النهاية القيم والمبادىء ووجهات النظر التى كانت تسود العصر . وأنا بالتالى يخيل لى أن هذا هو المرض الحقيقى فى حياتنا الثقافية الآن التى فقدت أعز ما ينتظر منها وهو خلق الهدف ووجهة النظر التى يحكمون بها وعلى أساسها ، على الأشياء التى تصادفهم إما بالأهمية أو بعدم الأهمية » .

لكن الزئبقيين يسيرون فى طرق ثقافية وفكرية وقد أعفوا أنفسهم من الالتزام الذى كان ينبغى أن يلتزموه ، ويتقنوا الخط الذى أراد كل منهم أن يسير فيه . فالزئبقى لا يرى فى هذا الخط سوى وسيلة لتحقيق غايات شخصية ومكاسب مادية لا تمت للالتزام الفكرى بصلة من قريب أو بعيد . فهو لا يأخذ من الفكر أو الثقافة أو المعرفة إلا ما يساعده على الظهور بمظهر الخبير ، وخلف هذا المظهر المزيف يسعى إلى تحقيق أهدافه الخفية ، ولذلك لم يوحدنا النشاط الثقافى فى وجهات نظر متبلورة، فى رؤية نشترك فيها أو على الأقل يشترك فيها معظمنا مما يؤدى إلى خلق مناخ ثقافى خاص بنا وبعصرنا . فكل يغنى على ليلاه مما جعل حياتنا الثقافية تبدو وكأنها جدار من الفسيفساء ذات الألوان المتنافرة ، إن حرية الآراء والأفكار لا تعنى غياب الطابع الثقافى والفكرى المميز لعصر ما ، طالما أن الجميع ينشدون الرؤية الموضوعية ، أما التوجهات الذاتية الزئبقية فمن شأنها اختلاط الحابل بالنابل وضياع الشخصية

الثقافية المميزة تماما . وفى هذا يقول زكى نجيب محمود فى نفس حديثه السابق :

« لا يوجد فرق بين وجهة نظر قومية تشيع فى قوم ووجهات نظر فردية فرعية للأفراد داخل هذا الإطار . . لنستحضر تاريخ الفكر والثقافة سوف نجد الأقوام المختلفين فى العصور المختلفة يسود فيها طابع معين . فأنا أستطيع أن أقول أن انجلترا ساد فيها الفكر التجريبى فترة ما . . فرنسا ساد فيها الفكر العقلانى فى فترة أخرى . . ولكن ليس معنى ذلك أن داخل الإطار الموحد أو شبه الموحد الأفراد لا يختلفون . . والآن . . مع الأسف لا وجود للثقافة بالمعنى الصحيح . . لأن كل مثقف مفرغ من داخله ، فهو لا يعرف الخط الذى يسير فيه هو . . ما هو أصله . . ماضيه . . وأن جزءا من الأسباب التى أدت لهذا الانهيار الثقافى . . انهيار التعليم الذى تسبب فى عجزنا عن القراءة بالعربية . . بالانجليزية أو الفرنسية . . وهذا الداء قد ظهر حديثا بالطبع فقط . فأين طه حسين فى الحاضرين وأين العقاد أو توفيق الحكيم . . حتى نجيب محفوظ ينتمى إلى الجيل الماضى . ولكن بالطبع لا يعتبر التعليم السبب الأول والأخير فى هذا الفراغ الثقافى . . إنما الظروف السياسية كان لها دور أيضا . . فقد أوجدتنا فى مشاكل ألهتنا عن الإبداع الثقافى خصوصا فى موقفنا مع إسرائيل الذى امتص واعتصر طاقتنا سواء كانت مالية أو فكرية . . فالتعليم انهار بناء على ذلك ، كما ظهرت مشكلة حرية الكلمة التى كان يمكن أن تضعف آنذاك من وحدة الصف العربى ، ونحن كنا فى ظرف لا يحتمل أى اهتزاز فى الصف » .

وكان من الطبيعى فى هذا الفراغ الثقافى والفكرى المخيف أن تزدهر الزئبقية وتملأه . فالحياة البشرية والطبيعية لا تحتمل الفراغ الذى لابد أن يملأ بطريقة أو بأخرى بصرف النظر عن المادة التى ستملؤه . وكانت النتيجة وجود الذين يدعون الثقافة والفكر وهم أبعد ما يكونون عنهما ، والذين لا يقرأون الأصول ولا ترجماتها بل يكتفون بخطف المعلومات العابرة التى تقال عن تلك الأصول أو ترجماتها ، ثم يدعون العلم وكأنهم ألموا بالموضوع من ينابيعه ، ويلخصون شيئا وقعت أعينهم عليه ويدعون تأليفه وابتكاره ، حتى لقد ضاعت المعالم الفارقة بين من يعلمون ومن لا يعلمون .

والمثقف الزئبقى يعرف بينه وبين نفسه أنه زائف ، يعرف القليل ويتظاهر أمام الناس بالكثير ، يصنع من الحبة قبة ليوحى للآخرين بأنه أتى بما لم تأت به الأوائل . لكنه فى الوقت نفسه لا يجاهد فى سبيل فكرة يعرضها لإحساسه الدفين بأنها ليست فكرته . وإذا ما أدرك ثمة مخاوف من التمسح بهذه الفكرة فإنه سرعان ما يلقى بها فى الوحل ليفر منها ومن تبعاتها . فهو كاللص الذى يخشى أن يقبض عليه متلبسا بما سرقه ، فيبعثره على الطريق وقد لاذ بالفرار . فالمال ليس ماله ولم يكد فى جمعه ، فلا بأس من التخلص منه إيثارًا للسلامة .

ومن عوامل ازدهار الزئبقية الثقافية وانتشارها أن الفكر الذى نحياه ليس فكرنا ، بل هو مستعار من سوانا ، فهو إما فكر منقول عبر المكان من مصادره الغربية ، وإما فكر منقول عبر الزمان عن أسلافنا . ولا

عيب فى ذلك كله ، لأن الحضارة اليوم ليست من صنعنا ، فلا علينا أن نأخذ عنها ما يفيدنا ، ولأننا فى الوقت نفسه أصحاب إرث ورثناه ، فلا عيب أيضا فى أن نغترف منه كل الإيجابيات الممكنة . لكن الروح الزئبقية التى تسعى إلى المكاسب الشخصية من أسرع طريق تلجأ إلى عمليات الخطف السريع ، فتختطف من هنا وهناك ، فى غير دراسة أمينة متأنية صابرة ، وبعد ذلك يتباهى الزئبقيون بخيلاء من يعرفون ، وينتحلون الأصالة فيما يقولون ويفعلون .

وحل هذه المشكلة ليس أمراً سهلاً لأن أول ما ينبغى فعله هو أن يفصح الزئبقى ـ لنفسه على الأقل ـ عن مدى زيفه قبل أن يستحكم منه الغرور ويصدق ما يكذب به على الآخرين . فإذا ما تم حل هذه المشكلة الصعبة فإن الخطوة التالية بعد ذلك لابد أن تأتى من تلقاء نفسها ، وهى أن تظهر الثقافة المصرية أو العربية الأصيلة التى يمكن أن تشكل رافدًا تستفيد منه الثقافة العالمية المعاصرة . ففى هذه الحالة سيترك العقل الزئبقى مكانه للعقل الموضوعى النقدى الذى لا يخشى على الإطلاق التفاعل مع الآخر ، والحوار معه ، من منطلق الاقتدار والثقة بالنفس . وهذا بدوره يحتم ممارسة االتفكير العقلانى ، باعتبار أن العقل هو محك الحكم على الأشياء . وهذه الممارسة العقلية تفترض العلم بالوقائع بدون تحفظ ، وتوافر المعرفة الموضوعية بحقيقة صراع الآراء والمصالح . ففى ضوء تحديد خريطة الصراع الفكرى ، والتعرف الدقيق على المصالح المتعارضة يمكن الكشف عن الاتفاق الممكن خلف واجهة الاختلافات

التى قد يبدو لأول وهلة أنه لا يمكن حلها ، والتى قد تؤدى إلى مزيد من الزئبقية والمراوغة والادعاء والزيف والكذب إذا عجزت الأطراف المعنية عن حلها .

والعقل النقدى هو نقيض العقل الزئبقى القائم على التجميل المثالى للواقع وعدم كشف عوراته ومشاكله طالما أن الظروف مواتية لتحقيق مكاسبه المادية الذاتية فى اللحظة الراهنة . أما العقل النقدى فهو الذى يتجاوز اللحظة الراهنة ويتسلح بالرؤية الموضوعية التاريخية التى تنظر إلى الواقع كتاريخ ، ولا يزور الحقائق ولا يقصر فى استخلاص الدلالات وقراءة النذر فى الأفق ، فى حين لا يهتم العقل الزئبقى إلا بالنذر التى تمس المصالح الشخصية لصاحبه ، فهو يرى الأشياء والظواهر فى جزئياتها ويعجز عن رؤية العلاقات الجدلية والتفاعلات الجارية بين الظواهر والأشياء ، لأنه يعتمد على التلفيق الذى لا يرصد سوى الأشياء فى تفاعلاتها وتداعياتها القصيرة الأجل ، فهو لا يملك قدرة العقل النقدى على التأليف والتركيب الموضوعى ، وحتى إذا امتلكها فإنه يتجاهلها تماما إذا ما مست المصالح الشخصية لصاحبه .

ومن طبيعة العقل الزئبقى أن يقوم بتبسيط القضايا وتسطيحها ، وتزيين الأمور ، والتهوين من المخاطر والعواقب ، وعدم حساب الاحتمالات ، مما يؤدى إلى كوارث ، وفقا لنظرية « كله تمام يا أفندم » . فهو بطبيعته عقل دعائى يتلاعب بالألفاظ والآراء والأفكار والتصريحات، لأنه يسعى إلى شراء الحاضر على حساب المستقبل ،

وتضخيم حجم الإيجابيات وعدم تسليط الضوء على السلبيات إلا إذا كان فى ذلك مصلحته الشخصية . وسيطرة العقل الزئبقى لا تعنى سوى تآكل فى نظام القيم التى تترك مكانها لقيم الانتفاع السريع ، مما يؤثر على النزاهة ، ويؤدى إلى مزيد من الخلط والتداخل بين النفع الخاص واعتبارت الصالح العام .

هنا يبرز الدور الاستراتيجى الحضارى المنوط بمرفق التعليم بكافة مراحله ، وكذلك مرفق الإعلام بكل أجهزته لبناء العقل النقدى ، وترسيخ قيم الممارسة الديمقراطية ، حتى يمكن بناء الثقافة القومية الحقيقية والفكر الموضوعى الحضارى المسلح بالعلم والنزاهة والخاضع دائما للمحاسبة الديمقراطية التى يمكن أن تقف بالمرصاد لكل أشكال الزئبقية الثقافية ، خاصة فى هذا العصر الذى تميز بالتفكك الأيديولوجى والإحساس العميق لدى فئات واسعة من المثقفين بأنه ضاع زمن اليقين، وسادت موجات الشك العميق ، وتراجع الانتماء الفكرى لتيار ما أو تجمع أو فئة ، كى يحل محله انتماء المصلحة التى تكاد تكون هى الالتزام الوحيد الآن بعد دوى الانهيارت السياسية الكبرى فى أعقاب نهاية الحرب الباردة .

وكان نتيجة ذلك أن أفرز المناخ الثقافى العربى فى السنوات الأخيرة أنماطا من الزئبقية الصريحة ، الواضحة التى لا تعرف الخجل بعد أن كانت تتوارى خلف أستار من التبريرات الفلسفية والشعارات المبتكرة . فقد برزت على الساحة الثقافية أنماط سلوكية جديدة للمثقفين فى سعيهم

الذؤوب للتكيف مع المتغيرات الدولية والإقليمية والمحلية . وكان تحول بعضهم من النقيض إلى النقيض الآخر ببساطة وليونة ومرونة يحسده عليها أعتى الزئبقيين فى العهود السابقة . فمنهم من تحول تحولا فجائيا من الماركسية فى أشد صورها تزمتاً إلى الإسلام السياسى فى أشد صوره تطرفاً !! ومنهم من كان مؤمنا بالاشتراكية والعدالة الاجتماعية بالمفهوم الناصرى ، وإذا به فى عهد الانفتاح الاقتصادى يتخلى عن كل ما نادى به وتحمس له ، ويبرز على الساحة بصفته من أكبر المروجين للرأسمالية وآليات السوق الوهمية التى ستنطلق بالمجتمع المصرى إلى مقدمة الدول الرأسمالية الراسخة أو فى طليعة النمور الأسيوية وهذا أضعف الإيمان!!ومنهم من كان متعصباً للفكر القومى والقومية العربية ليقينه بأنها جزيرة الأمن والأمان لكل العرب وسط محيط العالم المعاصر الزاخر بالأعاصير والأنواء ، وإذا به يسعد بصفته أداة من أدوات الفكر الإقليمى ليقينه بنهاية عصر القومية العربية ؛ ومنهم من ادعى من قبل أنه نذر حياته كلها لوطنه فكراً وسلوكاً ، وإذا به يستغل كل طاقاته الفكرية لمن يدفع أكثر ، ومهاراته البحثية فى أسواق النخاسة الفكرية لكى يكون الثروات ويشترى العقارات ويرفل فى الحرير والذهب . وهو لا يشعر فى ذلك بأدنى خجل أو حرج ليقينه أيضا بانتهاء عصر الثورة الذى ترك مكانه لعصر أمتع وأروع وهو عصر الثروة .

لكن الأمر لم يخل من شعار فلسفى ، يغطى به الزئبقيون الجدد أهدافهم الحقيقية . فقد نادوا بمبدأ الوسطية التى تدعى الحكمة والتأمل

والاتزان والتعقل والموضوعية الأكاديمية المتأنية ، وهى فى حقيقة أمرها نفس المبدأ القديم الذى يحرص على الإمساك بالعصا من منتصفها حتى تتضح الأمور ، ويتم التأكد من الطرف المنتصر ، عندئذ يبدأ الميل والانضمام إليه بعد أن تكون الأرض قد استقرت تحت الأقدام وأصبح السير عليها نحو الأهداف المرجوة مأموناً . فهذه الوسطية ليست سوى هروب من الاختيار وتحديد المواقف ، حتى لا يترتب على ذلك أية مسئوليات أو عواقب أو تداعيات لم تكن فى الحسبان ، فالزئبقيون من أتباع الوسطية يتوقفون عن إصدار الأحكام أو إبداع الآراء أو حتى مجرد التعليقات ، وهم يظنون أنهم بذلك يلتحفون بأردية الحكمة المتأنية ، ولا يدركون أنهم يتخلون عن دورهم كمفكرين ومثقفين لأن سرعة المتغيرات وإيقاعات العصر اللاهثة قد تأتى بما لا يشتهون .

ومشكلة الزئبقى الذى يمسك العصا من منتصفها أنه يدرس الآخرين ، ويحاول أن يستشف دخائلهم ومقوماتهم وقدراتهم وأسرارهم المادية والروحية ، وهو لا يكاد يفكر فى أن يضع نفسه أولا موضع الدراسة ، وهو يحيط ذاته بسور مرتفع يصعب على الآخرين أن يتخطوه حتى لا يكتشفوا أهدافه الحقيقية . ومن أجل تحقيق هذا الهدف يبدو دائما على استعداد ليتبنى أية مزاعم لا تقوم على أى أساس علمى أو تاريخى لكنها يمكن أن تشغل الآخرين ولو لفترة عابرة من الزمن . لكن القانون القائل بأنه لا يصح إلا الصحيح فى النهاية لن يرحمه لأنه بسلوكه هذا سيظل على هامش الحياة الثقافية ، فلن ينتظره أحد حتى يدلى برأيه

الكريم ، وإذا استمر وضعه على هذا المنوال فلابد أن ينتقل من الهامش إلى الظل حيث النسيان الكامل .

والمثقف الذى يحرص على دوره الريادى فى مجتمعه لابد أن يكون لنفسه منظومة متماسكة من القيم والرؤى ، يستطيع أن يتبناها ويدافع عنها بشكل متسق عبر الزمن ، وحتى لا يتذبذب فى مواقفه رفضا وقبولا من حين لآخر . وإذا كان الحلال بيناً والحرام بيناً ، فإن القيم الإنسانية تكاد تصبح فى حكم البدهيات ، وبالتالى لا مجال للوسطية أو المراوغة أو التلون أو الزئبقية بين المفكرين الموضوعيين والمثقفين التنويريين الذين يؤمنون بالاختيار الرشيد بين البدائل ، وممارسة النقد العقلانى بهدف بلوغ الحقيقة الموضوعية أيا كانت ، وإصدار الحكم بالقبول أو الرفض على أساس علمى منطقى دون تأثر بالأهواء الشخصية أو بالاستقطاب الأيديولوجى . من هنا كانت ضرورة الاختيار وتحديد المواقف وغير ذلك من العناصر الجوهرية المكونة للعملية الثقافية التى يحاول الزئبقيون التلاعب بها .

وعندما يدرك الزئبقى أن الظروف غير مواتية فإنه يلجأ إلى الصمت والغموض ، وإذا ما اضطر إلى الكلام فإنه ينطق ألفاظا تحتمل تأويلات عديدة ، ويتعمد اللامباشرة فى الحوار وإبداء الرأى ، خاصة فى اللحظات الحرجة التى تستلزم الوضوح الكافى والإدلاء برأى حاسم . فهو يفتقر إلى شجاعة المواجهة الصحية ، ولذلك يلجأ إلى المراوغة والتأويل والانتهازية واللعب على مختلف الحبال طبقا للظروف المواكبة

لسير الأمور . لكن إذا سارت الأمور على هواه وأصبحت الظروف مواتية، فإنه يستعيد شجاعته الغائبة ، ويمتطى صهوة الرأى الحر ، ويوجه خطابه إلى المجتمع بلهجة تصل إلى أقصى درجات الحدة ، وأحيانا تصل إلى حد التشنج ، مستفيدا بمناخ الحرية الذى لا يحاسب ولا يعاقب على الفكر والنقد ، لكنه لا يمارس حرية القول بنفس الحماس والدرجة فى نقد نفسه ، أو تقويم أهدافه ، أو تحديد دوره ومسئوليته . ولذلك يبدو موقفه وكأنه يسعى إلى إلزام الآخرين بما لا يلزم به نفسه . فهو فاقد للنظرة الموضوعية سواء أكان فى قاع ضعفه أو قمة قوته .

ولعل من أهم وظائف الزئبقيين رصد التغير فى المجتمع . وهم لا يهتمون بنوعية هذا التغير سواء أكان إيجابيا أم سلبيا ؟! لأن اهتمامهم منصب على مكاسبهم الشخصية فى جميع الأحوال . ولذلك سرعان ما يسبحون مع تيار الطبقة الجديدة ، ولا مانع من استخدام وسائل غير أخلاقية وغير مشروعة للإثراء على حساب القيم والمجتمع . أما إذا كان التغير فى غير صالحهم ولا قبل لهم به فإنهم ينزوون ويدعون ساحة المعركة خالية للفرسان الجدد ، ويلوذون بسلاح المثقفين التقليدى وهو السلبية . لكنها سلبية مؤقتة لأن الزئبقى يؤمن بأن دوام الحال من المحال ، ولذلك يواصل رصد التغير فى المجتمع انتظاراً للحظة التى تسمح بدخول المعركة . عندئذ لن يتوانى فى ركوب الموجة الجديدة .

ولا شك أن الزئبقية خاصية مواكبة للتخلف الحضارى . فالزئبقى يرفع شعار « الشطارة » ليوهم الآخرين بأنه يعمل دون أن يعمل حقيقة ،

ثم يطلب الجزاء دون عمل . ويبحث عن الثروة دون جهد كما لو كانت ستهبط عليه من السماء . وهو فى هذا ليس واهما ، لأن التسيب بصفته أحد عناصر التخلف الحضارى ، يتيح له خرق القواعد وإهدار القيم . وفى مناخه أصبح لمن لا حق لهم صوت عال لا أثر فيه للخجل أو الحرج، بل ويعلو أحيانا على صوت أصحاب الحق والكفاءة والخبرة والموهبة . وعندما يتساوى الكادح بالكسول ، والإيجابى بالسلبى ، والأصيل بالمزيف ، والعالم بالجاهل ، والكفء بالتافه ، فلابد للزئبقى أن يصول ويجول خاصة عندما يصبح الاستثناء هو القاعدة ، والسبق لأكثر الناس حيلة . ومع انتشار الزئبقية تصور الإنسان بصفة عامة أنه وحده فى هذه الدنيا ، وعليه أن يحصد كل المكاسب الممكنة لشخصه وحده ، أما الآخرون فهم مجرد وسائل لتحقيق غاياته القريبة والبعيدة على السواء .

والزئبقية تعنى الانتماء للذات فقط ، ولذلك فهى العدو الأول للانتماء الوطنى والإنسانى . ومهما تشدق الزئبقى بقيم الانتماء فإنه لا ينتمى إلا لنفسه . ولم يكن الانتماء قضية مطروحة على الأجيال السابقة لأننا كنا نتنفسه كالهواء فى حياتنا اليومية . ونصب شهداء الجامعة أمام مدخلها أكبر دليل على أن الانتماء لمصر كان يصل إلى درجة التطوع لفدائها بالروح . وكانت قيم القدوة والعطاء النابعة من الانتماء لمصر حقائق معروفة لدى الجميع . وليسمح لى القارىء العزيز أن أسرد عليه موقفين وقعا لى ، يدلان على أن مصر لم تكن مجرد منطقة جغرافية نعيش

فيها بل كانت كيانا حيا حافلا بكل رموز القدوة والعطاء التى انتمينا إليها وبالتالى كان انتماؤنا لمصر . فمصر هى المصريون وليست مجرد قطعة صماء من الأرض .

فقد كان لى حظ وشرف أن أمر بهذين الموقفين على يدى معلمين عظيمين من معلمى جيلنا والأجيال التالية : أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد والكاتب الكبير عباس محمود العقاد . ففى عام ١٩٦٢ كلفتنى مجلة لبنانية أن أجرى حديثا مع أحمد لطفى السيد ، يدور حول رأيه فى صراع الأجيال والظروف التى أصبحت تتحكم فى أفكار الشباب وسلوكياته . ورحب بإجراء الحديث برغم أننى كنت كاتبا ناشئا فى ذلك الوقت . وعندما صارحته بمشاعرى هذه فى بدايةالحديث أجابنى بأبوة حانية أنه رحب باجراء الحديث لأننى كاتب ناشىء وفى حاجة إلى من يدفعنى إلى الأمام . وهكذا فزت بإجراء آخر حديث له إذ أنه رحل بعده بشهور . وما يهمنا الآن من هذا الحديث آخر سؤال ألقيته عليه وكان عن النصيحة التى يمكن أن يسديها للشباب . فكان رده أنه لا يملك أية نصيحة على الإطلاق . وعندما عبرت عن دهشتى البالغة لهذا الرد الذى يتعارض مع كل ريادته الفكرية وثقافته الشاملة العميقة ، وأستاذيته فى مجال إنشاء الجامعة وفتح كل النوافذ على فلسفات الحضارة الإنسانية ، كان تعليقه :

« لو اقتصر الأمر على النصيحة وكانت فعالة بالقدر الذى يظنه معظم الناس ، لتحول كل الناس إلى ملائكة ، إذ ما أسهل الكلام

المنمق الجميل والشعارات الرنانة الجذابة . لكن معظم الذين يبدو عليهم الاقتناع بما يستمعون إليه من نصائح ، هم رافضون لها فى أعماق نفوسهم ، لإيمان الجميع بأن الحلال بين والحرام بين ، ولا يحتاج إلا إلى التنفيذ العملى . ولذلك ليس هناك من يملك سلطة نصح الآخرين بالكلام ، فإذا أراد فعليه بضرب المثل العملى والقدوة الحسنة ، عندئذ سيمتثل به الجميع ويسيرون على نهجه . فالعبرة بالأعمال وليست بالأقوال ، وأى تناقض بينهما هو الزيف بعينه » .

أما الأستاذ العقاد الذى اشتهر بعنف معاركه الفكرية ، فكان يحمل قلبا ينبض بالحب والصراحة والوضوح والمواجهة المباشرة ، وعقلا يؤمن بأن القدوة الحقيقية هى أفضل وسيلة للتعليم . وكان لى حظ أن أكون أحد رواد ندوته الشهيرة كل جمعة ، لكننى كنت ألتزم بموقف التلميذ الذى لا يملك سوى الإنصات الجيد وسط رواد الندوة الكبار من أمثال زكى نجيب محمود وصلاح طاهر ومحمد حسن الشجاعى وأنيس منصور وطاهر الجبلاوى وغيرهم .

وكان من عادة العقاد صباح كل جمعة قبل بداية ندوته أن يمر بمكتبات وسط القاهرة ، خاصة مكتبة الأنجلو المصرية ليشترى منها أحدث الكتب الأجنبية التى تهمه . وحدث أن طلب منا أستاذنا الدكتور أمين روفائيل شراء كتاب يحوى أمهات القصائد الشعرية فى الأدب الإنجليزى . وكان ذلك فى شهر نوفمبر من عام ١٩٥٩ حين كنت طالبا فى السنة النهائية بقسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة .

فذهبت صباح يوم جمعة إلى مكتبة الأنجلو بحثا عن الكتاب ، وهناك قابلت الأستاذ العقاد الذى كان يتصفح كعوب الكتب ، وصفحات ما يثير اهتمامه منها .

ألقيت بالتحية على الأستاذ فى بعض من الخجل والتلعثم فرد بأسلوب أبوى دافىء ، أشاع السعادة داخلى ، وسرعان ما عثرت على الكتاب الضخم لأسأل الأستاذ صبحى صاحب المكتبة عن سعره ، فأخبرنى أنه جنيهان وربع الجنيه . فأعدته إلى مكانه مسرعا ، إذ أن أغلى كتاب فى ذلك الزمن لم يكن يتجاوز جنيهاً واحدًا . لكن الأستاذ العظيم لمح ما دار فإذ بصوته الجهورى الرصين يأمرنى بإحضار الكتاب . فلم أملك سوى تنفيذ الأمر دون أن أستوعب أبعاده . تصفحه الأستاذ ثم ضمه إلى مجموعة الكتب التى قرر شراءها ، ودفع الثمن ثم مد يده بالكتاب ناحيتى وعندما لاحظ ترددى وحرجى أصدر أمره : إمسك ! خذ كتابك !

ولم أملك سوى أن أمسك بالكتاب ولسانى يتلعثم بالشكر والخجل واغرورقت عيناى بالدموع والعرفان بجميل الأستاذ . ومازلت أحتفظ بالكتاب فى صدر مكتبتى لأتذكر من حين لآخر قدوة الأستاذ العظيم الذى كنا ننتمى إ ليه وإلى غيره من صناع عقولنا . ومن هنا جاء ونما انتماؤنا إلى مصر ، انتماؤنا الذى نبعت منه كل المثل والقيم التى تلاشت أمامها أية بوادر للزئبقية الثقافية كما تتلاشى الظلمة أمام بهاء الضياء وروعته .

وشعب بهذا الوعى الحضارى العميق كفيل بالقضاء على كل مظاهر الزئبقية الثقافية فى حياتنا . فمن الصعب خداعه والتغرير به وهو الذى تعلم الحذر والصبر بل والشك قبل أن يصل إلى مرحلة اليقين . فهو لا يأخذ الأقوال على عواهنها بل يقبلها ويفندها ويمحصها خشية أن تكون هناك أية محاولات للكذب أو الخداع أو التزييف . وهذا الحرص يتجلى فى أمثاله الشعبية وأقواله المأثورة التى تعرى كل أنواع الزئبقية الثقافية والفكرية عبر العصور المتتابعة . من هذه الأمثال والأقوال :

- من حكى لك ، حكى عنك .
- زى ما يقولك ، يقول عليك .
- الساهى يا ما تحته دواهى .
- خليك وراء الكداب لباب الدار .
- الكذب مالوش رجلين .
- قال الجمل طلع النخلة ، قال : آدى الجمل وآدى النخلة .
- المية تكدب الغطاس .
- مطرح ما تآمن خاف .
- لا تذم ولا تشكر إلا بعد سنة وستة أشهر .
- إذا كان الكلام من فضة ، فالسكوت من ذهب .
- من دارى أيامه ما انغدر زمانه .
- خد اللص قبل ما ياخدك .

- أذكر الديب وهيىء له القضيب .
- تيجى تصيده يصيدك .
- اللى اتلسع من الشوربة ينفخ فى الزبادى .
- الحيطان ليها ودان .
- لسانك حصانك إن صنته صانك و إن خنته خانك .
- طولة البال ، تهد الجبال .
- فى التأنى السلامة ، وفى العجلة الندامة .
- أبعد عن الشر وغنى له .
- تعاشروا كالإخوان وتعاملوا كالأغراب .
- اركب الديك وبص فين يوديك .
- ياللى قاعدين يكفيكوا شر الجايين .
- إن نام لك الدهر ماتناملوش .
- أكتم سرك واشكى لربك .
- تصبر على جار السو يا يرحل يا تيجى له داهية تشيله .
- يا خبر النهاردة بفلوس بكره يبقى ببلاش .
- مقطع السمكة وديلها .
- صباح الخير يا جارى . انت فى دارك وأنا فى دارى .
- اللى تقرصه الحية م الحبل يخاف .

- أكتم سرك ، تملك أمرك .
- الحلم سيد الأخلاق .
- الناس فى اختلافهم فى خِلقهم كاختلافهم فى خُلقهم .
- اللى بيته من قزاز ، ما يرميش الناس بالطوب .
- تحلف لى أصدقك ، أشوف أمورك أستعجب .
- الدوى على الودان ، أشد من السحر .
- اكره ودارى وحب ووارى .
- مش كل مرة تسلم الجرة .
- نهيتك ما انتهيت ، خليتك على ما اشتهيت .
- خليه على هواه ، لحد ما ييجى ديله على قفاه .
- انت تزرع وغيرك يقلع .
- اللى اختشوا ماتوا .
- العيار اللى مايصبش يدوش .
- يقتل القتيل ويمشى فى جنازته .
- قالوا للحرامى احلف ، قال جالك الفرج .
- ركبته ورايا حط إيده فى الخرج .
- زى المنشار طالع واكل نازل واكل .
- خد من دقن القرد شعرة .

- ياكلها والعة .
- البقرة لما تقع تكتر سكاكينها .
- الغايب مالوش نايب .
- اللى تغلب به العب به .
- يلعب بالبيضة والحجر .
- خدوهم بالسوط ليغلبوكم .
- اللى سبق أكل النبق .
- اللقمة تنادى أكالها .
- ضربنى وبكى وسبقنى واشتكى .
- إن أكلت أشبع وإن ضربت أوجع .
- عيوبى لا أراها ، وعيوب الناس أجرى وراها .
- كل واحد بيدور على نفسه .
- مطرح ما ترسى ، دق لها .
- إن غاب القط ، العب يا فار .
- يا قلبى يا كتاكت ياما أنت شايل وساكت .
- زى المش كل ساعة بوش .
- إن كان لك عند الكلب حاجة ، قوله يا سيدى الخواجه .
- إن بانت لك عند القرد صرمة ، قوله يا سيدى .

- فى الوش مراية والقفا سلاية .
- تحت البراقع سم ناقع .
- يصلى الفرض وينقب الأرض .
- يقعد على القبلة ويبلع المدرة .
- تحلف لى أصدقك ، أشوف أمورك أتعجب .
- يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب
- ماحد ينادى على زيته عكر .
- ماحد يقول عن عسله حامض..
- الحياء سنة ومسح الجوخ فرض .
- بوس الأيادى ضحك على الدقون .
- احترنا يا قرعة ، منين بدنا نبوسك .
- عين فى الجنة وعين فى النار .
- ياما فى الجراب يا حاوى .
- الفشر والنشر والعشا خبيزة .
- فص ملح وداب .
- سكة حجا كلها مسالك .
- فتح عينك تاكل ملبن .
- يوديك البحر ويرجعك عطشان .

- الرزق يحب الخفية .
- ودن من طين وودن من عجين .
- كلمة « حاضر » تريح .
- خد الناس على قد عقولهم .
- زى نجوم الليل ، تبرق ولا تنورش .
- زى القطط يأكلوا وينكروا .
- زى الوز حنية بلا بز .
- عايز جنازة ويشبع فيها لطم .
- دارى على شمعتك تنور.
- يحلف لى أصدقه ، أشوف أموره استعجب .
- يخانقنى فى زفة ، ويصالحنى فى عطفة .
- أهل الميت سكتوا والمعزين كفروا .
- علمناهم الشحاته ، سبقونا على الأبواب .
- قول له فى وشه ولا تغشه .
- ضلالى وعامل إمام ، والله حرام .
- الكلام لكى يا جارة ، وانت عاملة حمارة .
- يعمل من الحبة قبة .
- علقة تفوت ما حد يموت .

الفصل الرابع
الزئبقية السياسية

قد تبدو الزئبقية فى أخطر صورها عندما تتجلى فى ميدان السياسة ، خاصة فى نظم الحكم الديكتاتورية والشمولية والاستبدادية التى لا تتيح للشعب أى فرصة للتعبير عن كيانه وإثبات ذاته ، فيضطر إلى استخدام الوسائل الزئبقية فى تحقيق أهدافه على المستوى الشخصى البحت لأن المستوى القومى رهن بارادة الديكتاتور . فإذا كان الديكتاتور يعتمد فى حكمه على أسلحة الإرهاب والعنف والرعب والإذلال والخوف ، فإن المجتمع تحت وطأته يتحول إلى تربة خصبة ومرتع لكل مظاهر النفاق والانتهازية والخداع والزيف ومسح الجوخ .

ففى ظل الديكتاتورية يتخذ معظم الناس مواقف سياسية أو فكرية لا يؤمنون بها ، فى سبيل تحقيق أو حماية مصالح أنانية شخصية . أى أن الديكتاتورية تجبر المواطن على أن يصبح كائنا زئبقيا يغير مواقفه السياسية وتوجهاته العقائدية حسب تغير الظروف . فليس له موقف صريح ، واضح ، محدد حتى لا يحاسبه أحد عليه .

وللمواطن العذر فى هذا . فالديكتاتور نفسه بكل بطشه وجبروته ،

كائن زئبقى ، يقول اليوم ما ينقضه غداً ، ويقول غداً ما يتخلى عنه بعد غد . فليست هناك أية كوابح يمكن أن تقنن هذه الزئبقية وتبلورها وتحيلها إلى قناة يمكن التعرف على ضفافها الممتدة بين منبعها ومصبها . فهو يعرب عن آرائه من خلال مواقف سياسية يومية تبعا لرغباته وأهوائه وشطحاته ونزواته المتقلبة ، وليس من خلال منهج عقلانى علمى أو عقيدة سياسية وفكرية متكاملة ، بل يصبح هو بشخصه المبدأ والعقيدة ، والمنبع والمصب ، والوسيلة والغاية .

وقد يتبنى الديكتاتور عقيدة معينة ، لكن تبنيه هذا ليس إلا موقفا سياسيا طارئا ومؤقتا ، وليس فكريا لأنه سرعان ما يتخلى عن كل المذاهب الفكرية والسياسية المعروفة دفعة واحدة إذا ما تغيرت الظروف وواجهته ضغوط خارجية لا قبل له بها ، أو إذا ما اقتضت مصلحته الشخصية وميوله النرجسية ذلك . فهو يدرك جيدا أنه ليس الأسد الوحيد فى أحراش السياسة العالمية ، بل هناك أسود أكثر شراسة وبطشا منه . ولذلك فهو غالبا له أكثر من وجه ، وجه زئبقى ، متقنع ، متلون يواجه به العالم ، ووجه متجهم ، صارم ، حاد يواجه به بلده .

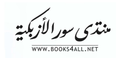
والمواطن الذى يعانى من هذا المناخ الخانق والفاسد ، ليس عنده ما يقدمه للمجتمع سوى معاملات النفاق والانتهازية ومسح الجوخ وتسلق السلم الاجتماعى بكل الوسائل الممكنة . وهو سلوك غير قاصر على طبقة اجتماعية أو فئة مهنية معينة أو أى قطاع محدد من المجتمع ، بل يجمع عينات متعددة ومتنوعة من كل الطبقات وجميع المهن .

فالزئبقية وباء ينتشر بالعدوى ويصيب معظم الذين يتعرضون له ، خاصة هؤلاء الذين طحنتهم الحياة وأذلتهم أو الذين يفتقدون المناعة الأخلاقية لمقاومته .

والديكتاتور هو محور التفكير والسلوك الذى يدور حوله كل الزئبقيين والانتهازيين والمنافقين والمتسلقين . فكل منهم يتفنن فى تسخير قدراته وطاقاته فى سبيل تغذية كل منابع جنون العظمة داخل الديكتاتور . فرجل الأعمال الناجح لا يهمه الازدهار الاقتصادى لبلده بقدر ما يهمه وضع كل مؤسساته وشركاته فى خدمة الديكتاتور من أجل التقرب منه والحصول على المزيد من الامتيازات ، ذلك أن أفراد البطانة المحيطة بالديكتاتور يستمدون سطوتهم من قربهم منه ، ولذلك فهم على استعداد دائما لتلبية رغباته مهما كانت طائشة أو سخيفة أو مجنونة .

والكاتب الصحفى أو المسئول الإعلامى يتفنن فى تسخير قلمه أو حديثه فى الغزل المكشوف أو غير المكشوف فى عبقرية الزعيم وتفرده وإعجازه وإلهامه ، ويضيف كل يوم بريقاً جديداً إلى صورته ، ويواصل نفخه وحقنه غير عابىء باليوم الذى سينفجر فيه . فهدفه الأساسى مواصلة تحقيق مصالحه الشخصية وتدعيمها وتصعيدها حتى يصبح نجم الصحافة الأوحد أو رائد الإعلام المتفرد . ففى ظل الزئبقية السارية فى عروق الحياة السياسية ، كل يغنى على ليلاه .

ولا يتوقف المد الزئبقى عند حدود بطانة الزعيم أو صحافته أو إعلامه بل يمتد ليغطى كل أجهزة الدولة الشمولية . فواضع البرامج التعليمية



للمدارس والمعاهد يقحم آراء الزعيم وفلسفاته فى كل المواد حتى لو كانت فى الكيمياء أو الفيزياء أو البيولوجيا . بل هناك من يقومون بتأليف كتب للزعيم ويضعون اسمه عليها . ومن الأمثله الواضحة على ذلك : ديكتاتور رومانيا الراحل شاوشيسكو الذى ألف موسوعة شاملة لكل فروع المعرفة الإنسانية ، وتتكون من سبعة وعشرين جزءا من القطع الكبير ، وكل جزء يحتوى على أكثر من ألف صفحة فى حين أن شاوشيسكو نفسه لم يكمل تعليمه .

والزئبقية السارية تحت وطأة الديكتاتور على أتم استعداد لتغيير وجهتها لو فقد هذا الديكتاتور زمام الأمور ، وهذا توقع محتمل دائما . فكل هؤلاء وغيرهم سرعان ما يغيرون اتجاهاتهم ومواقفهم من النقيض إلى النقيض الآخر لو استطاع ديكتاتور آخر أن يستولى على الحكم كنوع من الانقلاب أو الثورة على الديكتاتور السابق . وكما أن مواقف الزئبقى أو الانتهازى أو المنافق من الأوضاع السياسية والشعارات الفكرية شىء مؤقت وقابل دائما للتغيير ، كذلك تجمع الزئبقيين فى بطانة حول الطاغية شىء مؤقت يزول بزوال الظروف التى اقتضته ، ثم يعود بنفس الشكل أو بشكل جديد حول مركز الثقل الجديد وهكذا .

والديكتاتور بطبيعته يحب كل الزئبقيين والمنافقين والمتلونين والمتسلقين لأنهم مريحون للغاية ، فحيث يشير يكونون فى خدمته ، فهم فى نظره الأتباع المخلصون الأوفياء السائرون على دربه ، خاصة وأن الزئبقية تطورت ولم تعد ساذجة أو محددة أو مباشرة ، أو خبيثة خبثا

تقليديا ، بل أصبحت تستخدم الأساليب الحديثة فى التخطيط الاستراتيجى والتنظيم والدعاية والفكر ، وذات مطامح سياسية واقتصادية بعيدة المدى ، تصل إلى حد السيطرة على الحكم ، فى حين يظن الديكتاتور أنه المسيطر الأوحد .

وهناك زئبقية مباشرة قصيرة النظر ، تسعى لتحقيق غاياتها من أى طريق قصير مهما كان نوعه ، ويصدر عنها أى نوع من العمل مهما كان، طالما أنه يساعدها على تحقيق أهدافها . لكنها زئبقية لا تثير التفات الديكتاتور الذى ينظر إليها من علُ ولكن فى رضا لأنه يفضل المواطن الذى تستغرقه مصالحه الشخصية ومكاسبه المادية على المواطن الذى تشغله القضايا القومية ، ويمكن أن يسبب تياراً مضاداً له أو مشكلات هو فى غنى عنها . أما الزئبقية بعيدة النظر وطويلة النفس فهى التى تلفت انتباه الديكتاتور وتشبع نوازعه النرجسية لأنها تحرص على أن يكون أسلوبها مبطنا ومعميا وغير مباشر فتحاول أن تكسب سمعة وطنية وصبغة قومية . وإذا احتاجت إلى أن تقدم على عمل يستنكره الرأى العام قامت به بأسلوب خفى ، فتدفع إلى ذلك غيرها ، أو تحرك عملاءها بدلا من أن تقوم به هى بنفسها . فهى زئبقية متطورة ، ووسائلها حديثة ولبقة ، وليست فجة بدائية مثل زئبقية الأمين أو الغوغاء أو أنصاف المتعلمين ، فهى من ابتكارات المثقفين والمفكرين الزئبقيين الذين يوحون للديكتاتور بأن عقل الأمة كلها قد أصبح بين يديه ورهن إشارته وتحت رحمته .

وفى ظل الديكتاتورية يكثر عدد الزئبقيين الذين يعيشون بوسائل غير مشروعة ، تقوم على التزييف والاحتيال ، واقتناص الفرص التجارية ، والاحتكار والصفقات المشبوهة والسمسرة والوساطة والمحسوبية والعلاقات الحميمة بالشركات الأجنبية وغير ذلك من الوسائل الخفية والمراوغة . وغالبا ما يعمل أقارب الديكتاتور وأصدقاؤه المقربون فى التجارة والمقاولات والتهريب والمضاربة بالأراضى ، وتوكيلات الشركات الأجنبية والعمولات المرتبطة بها . ويهمهم أن يتسع نطاق نشاطهم ويشمل أكبر عدد ممكن من العملاء والمستفيدين حتى يصبحوا كتلة مؤثرة فى مجريات الأمور . وبذلك تنفتح أبواب السلطة فى وجه المنافقين والمحتالين والمدعين والأفاقين وغيرهم من الذين يتخفون وراء أقنعة رجال الأعمال والمقاولين وهم فى الواقع رؤساء عصابات وتجار مخدرات وكل الممنوعات الممكنة .

أما الموظفون البيروقراطيون فيلتفون حول كل حكومة يشكلها الديكتاتور ، ويؤيدون كل وزير أو مسئول ، خاصة وأنه تحت وطأة الديكتاتورية يتحول كل مسئول إلى ديكتاتور صغير فى موقعه . أى أنها سلسلة لا تنتهى من الطغاة والعبيد . موظفون طغاة على من هم أدنى وأضعف منهم ، وعبيد لمن هم أعلى وأقوى منهم ! حلقة من القهر والجبروت المباشر تليها حلقة من التملق والزئبقية المراوغة ، وهكذا بطول السلسلة من خلال الهدف الأسمى للبيروقراطيين الذى يتمثل فى

الحصول على الترقيات والمنافع المادية وتسلق السلم الوظيفى إلى أعلى درجات ممكنة .

ومما يرسخ التقاليد الزئبقية تحت وطأة الديكتاتورية ، تلك الحالة العصبية التى تلازم المجتمع وتغلب العاطفة والانفعال ، مما يجعل المجتمع فى حالة من الهياج وعدم الاستقرار ، وبالتالى يصعب عليه تحكيم العقل فى المحاسبة والتقويم وإصدار الأحكام . وتلك أوضاع وظروف تناسب الزئبقية ، والانتهازية وتشجع التملق والنفاق لأنها تضعف رقابة المجتمع ومقدرته على التدقيق فى الأمور ، والتفرقة بين الحق والباطل .

لكن الزئبقية سلاح ذو حدين . ففى بعض الأحيان يستفحل خطرها بين أفراد البطانة المحيطة بالديكتاتور ، لدرجة تهديده هو نفسه وطرح نفسها كبديل له ، مستغلة فى ذلك الأخطاء التى يرتكبها الديكتاتور تباعا ، والثغرات التى يفتحها بطيشه وشطحاته ونزواته . أما الديكتاتور اليقظ دائما ما يلجأ عادة إلى تصفية أعوانه ومساعديه من حين لآخر ، سواء أكانوا أفراداً أم جماعات .

والديكتاتورية والزئبقية وجهان لعملة واحدة . فالديكتاتور يعلن عن خططه وبرامجه وأهدافه بطريقة طنانة رنانة قد تصم الآذان ، فيها كل شىء وتعد بكل شىء : الممكن وغير الممكن ، السهل والصعب ، وحتى المستحيل ليجذب سذج الناس ، وليستخدم ذلك مادة للدعاية . ونفس الوضع ينطبق على الزئبقية السائرة فى ركاب الديكتاتورية ، فهى

لا يهمها أن تكيل الوعود سواء للديكتاتور أو للشعب ، ولا يهمها أن تكذب على الديكتاتور أو الشعب لأنها تهدف للكسب السياسى المؤقت، وليس لتحقيق تلك الوعود .

لكن مهما استشرت الزئبقية وتتابعت مواكب النفاق والانتهازية والملق والتسلق والخداع والزيف والكذب ومسح الجوخ ، فإن دوام الحال من المحال ، وقوانين الكون تضع لكل شيء نهاية مهما رسخ أو استشرى ، ولابد أن يأتى اليوم الذى تتعرى فيه الحقائق من كل أقنعة الزيف ، عندئد يدركها الديكتاتور ولكن بعد فوات الأوان ، وعندئذ يكون السقوط العظيم ولكن بعد أن يكون قد أثخن جسم المجتمع والأمة بأبشع أنواع الجروح والقروح . ففى النهاية يتحتم على الشعوب أن تدفع فاتورة الديكتاتورية كاملة .

ولعل زئبقية الطاغية هى التى تضلل الشعب فينقاد خلفه منذ البداية. فهو فى مرحلة صراعه للوصول إلى الحكم لا يكشر غالبا عن أنيابه ، وذلك لحرصه كل الحرص على جمع الأعوان والأتباع بقدر الإمكان ، لكن بمجرد وصوله إلى الكرسى وتمكنه من مقاليد الأمور ، يكشف عن نواياه الحقيقية فى الانفراد بكل القرارات والأوامر والتعليمات. وسرعان ما تدرك البطانة المحيطة به قواعد اللعبة ، فتشرع فى تغذية كل منابع النرجسية وجنون العظمة بل والتأله عنده ، فيتقبل المديح فى بداية الأمر بتواضع شديد على طريقة « أخجلتم تواضعنا » ، ثم يتحول المسار إلى تقبله كحقيقة ثابتة ، فى هذه الحالة يصبح الدليل

المادى الوحيد على الولاء للزعيم . وويل لمن تسول له نفسه أنه قادر على إسداء النصح الخالص له ، إذ أنه سيصبح البومة التى تنعق فى مسامع الزعيم الذى اعتاد الاستماع إلى البلابل المغردة والصادحة والمسبحة بحمده ليل نهار !!

ونظرا لأن النفس أمارة بالسوء ، فما أسهل تغذيتها بالمديح والتقريظ والإعجاب الذى يصل إلى درجة الهوس ! وما أصعب كبح جماحها وإعادتها إلى المسار الصحيح !! والمثل المصرى الذى يقول : » سألوا فرعون : إيه اللى فرعنك ؟! قال لهم : مالقيتش اللى يصدنى « مثل صحيح تماما ! فداخل كل إنسان طاغية كامن داخله ، لكن فى حالة الديمقراطية يمكن ترويضه وكبح جماحه من خلال الآراء والقوى المعارضة ، وبالتالى يتحول إلى طاقة لما فيه خير الآخرين ، أما فى حالة الديكتاتورية فإن زمامه يفلت ، ويتحول إلى سيارة منطلقة إلى الهاوية بدون أية كوابح ، فى حين لا يملك ركابها سوى إغماض عيونهم قبل السقوط فيها . والمأساة الحقيقية تكمن فى أن الطاغية لا يسقط بمفرده وإنما يسقط شعبه بأكمله معه !

وهناك من الفلاسفة المتشائمين من يظن أن تاريخ البشرية قد أثبتت أن الديمقراطية هى الاستثناء فى حين تشكل الديكتاتورية القاعدة ؛ ولذلك يتحتم على البشر أن يكونوا دائما بالمرصاد لها حتى لا تستفحل وتوردهم موارد التهلكة فى النهاية . فلن تأتى الديمقراطية لأحد على طبق من فضة ، بل هى فى حاجة إلى كفاح أجيال متتالية لترسيخ

جذورها قدر الإمكان ! وهى جذور يمكن أن تصاب بالعفن وتثمر أبشع أنواع الديكتاتورية إذا لم يتعهدها أصحابها بالرعاية الدائمة فكراً وسلوكاً ، وفى هذا يقول الفيلسوف الإيطالى الشهير ماكيافيللى فى كتابه «الأمير» :

« يمكن أن يقال بوجه عام إن الناس ناكرون للجميل ، ذلقو الألسنة، حريصون على المكاسب المادية بأقل قدر ممكن من المخاطرة . وهم يضعون أنفسهم فى خدمتك ما دمت تفيدهم . . والأمير الذى يعتمد كل الاعتماد على كلامهم دون أن يحتاط بترتيبات أخرى واعية ومدركة لأهدافهم ينكب بالفقر . والناس لا يترددون فى إهانة شخص يجعل نفسه موضع حب مثلما يترددون فى إهانة شخص يجعل نفسه مثار خوف . ذلك أن الحب مرتبط بسلسلة من الالتزامات يمكن أن يخل بها الناس بدافع من الأنانية كلما خدم ذلك أغراضهم » .

من الواضح أن ماكيافيللى هنا يركز على الجانب الزئبقى فى الطبيعة البشرية ، وهو الجانب الذى يتبع قانونه الشهير الذى يقول بأن الغاية تبرر الوسيلة ، فى حين يصور الفيلسوف الألمانى صامويل بوفندورف فى كتابه « قانون الطبيعة والأمم » الأسباب الجوهرية التى تؤدى إلى اتباع الأساليب الزئبقية فيقول :

« إن الحيوانات لا تتصارع على طعامها إلا اذا أصبح نادراً ، لكن البشر لا يشبعون حتى فى حالات الوفرة ، بل ويدخلون فى صراعات مميتة لا تعرفها الحيوانات . فهم دائما فى عطش إلى أشياء تزيد على

حاجتهم ، وعلى استعداد لسلوك كل الدروب الملتوية للحصول عليها ، كذلك فهم مصابون بالطموح الذى يعد أكثر الآثام إيذاء لأنه يؤدى إلى كل مظاهر العظمة والتأله . والإنسان هو المخلوق الوحيد ، على سطح هذه الأرض ، المصاب بهذا الداء الوبيل » .

ولا شك أن الطموح فضيلة إنسانية ، لكن العبرة بالوسيلة التى تستخدم لتحقيقه وبالمدى الذى يمكن أن يصل إليه ، لأنه إذا تجاوز حدوده فإنه يتحول إلى جنون العظمة الذى يمكن أن يؤدى إلى كوارث لا حدود لها . وجنون العظمة يبدأ عادة من مزيج عجيب بين الثقة المفرطة فى النفس والطموح الذى يليق بالعظمة المتخيلة التى لا تجد مقاومة من الآخرين لأنهم مشغولون بمصالحهم الشخصية ، مما يؤدى إلى مرحلة الغرور المطلق أو جنون العظمة . وهو جنون تصطنعه شخصية الطاغية فى البداية ثم يعتاده ؛ ليصبح قشرة خارجية تفصله تماما عن مجريات الأمور فى الواقع الحى ، وعن واقعه النفسى الشخصى الذى يستشعره فى أعماق نفسه . فهو يغلف نفسه بما ليس له . وكلما زادت العوازل التى يضيفها الطاغية إلى شخصيته ، كانت قدرته على التفاعل مع العالم الخارجى أصعب وأشق .

والزئبقية أرض خصبة لنمو جنون العظمة ، فهى تتيح الفرصة كاملة لمجنون العظمة كى ينتفخ كالبالون الذى يوشك على الانفجار ، بحيث لا يرى سوى ذاته المنتفخة المتضخمة ، فينكر على كل من حوله منْ الزئبقيين أى فضل . وهم لا يجدون غضاضة فى ابتلاع نكران الجميل

هذا ، خاصة إذا استشعروا رغبته وقدرته على البطش بكل من تسول له نفسه أن يعرى حقيقته الزائفة . فالمواجهة والمصارحة ليستا من شيم الزئبقيين .

والملاحظة الجديرة بالتسجيل أن الطاغية نفسه يتعامل مع نفسه بزئبقية عجيبة لأنه لا يريد أن يرى حقائق حياته على طبيعتها . وجنون العظمة ينشأ عن سوء تقدير الطاغية لنفسه ، أو بتغيير أدق نتيجة سوء تفسيره لنفسه فهو يراوغ نفسه ويغالطها مغالطة لا شعورية تنبع من مزيج من سوء التفسير من ناحية ، ومن دفاع كاذب عن النفس من ناحية أخرى . ولعل الإنسان هو أقدر المخلوقات على خداع النفس بتغليف الواقع المر بخيال حلو أو تغطية إخفاقاته وفشله بنجاحات وانتصارات موهومة لا تنتمى إلى الواقع المعاش بصلة . لذلك لا يتقدم مجنون العظمة إلى الأمام بل يدور فى حلقات مفرغة على أرض زلقة . فهو يعتقد بالوهم الكاذب أو بسوء التقدير أو بسوء التفسير أنه حقق بالفعل كل الآمال المستحيلة . ولعله بهذا السلوك يتهرب من مواجهة نفسه خشية الوقوف على حقيقة الأمور التى يمكن أن تصيبه بصدمة قد تؤدى به إلى الجنون أو الانتحار . ولذلك يصر على مراوغة نفسه وتجنب واقعه المؤلم حتى يظل فى مأمن من نفسه موهما الآخرين بما ليس عنده وبما لم يحرزه فى حقيقة واقعه .

وطالما أنه يملك القدرة الفائقة على البطش بالآخرين ، فإن كل من حوله يتظاهر بإيمانه العميق بعبقريته ، بل ويدفع به بكل قوة إلى الدوران

فى هذه الدوائر الفارغة المحمومة التى تزداد فيها ذاته تضخما وانتفاخا حتى تحدث الطامة الكبرى بسقوط الطاغية ومعه الشعب الذى لابد أن يدفع الثمن كاملا دون ذنب جناه سوى سلبيته الزئبقية التى تركت الأمور تجرى فى أعنتها حتى الهاوية . لكن رحمة الله عز وجل تتجلى فى أنه إذا كان على الشعوب أن تدفع ثمن رضوخها لطغاتها ، فإنها لا تموت معهم، بل تواصل المسيرة بعدهم مستفيدة بالدروس القاسية التى تحتم اليقظة الكاملة المتربصة بالطغيان فى كل موقع .

وليست الزئبقية واعية دائما . فالزئبقى يتصرف أحيانا دون أن يدرك حقيقة سلوكه الزئبقى . يحدث هذا مثلا فى حزب من الأحزاب ، أو نقابة ، أو اتحاد ، أو جمعية خيرية دون أن يعى الزئبقى ذلك أو الآخرون الذين يتعاملون معه . فالزئبقية مرض يمكن أن يظل كامنا وفى حالة سكون داخل الإنسان لفترة من الزمن ، لكن اذا وضع فى ظروف جديدة تغريه بالتسلق وتحقيق مصالح أدبية أو مادية أو كليهما ، فإن زئبقيته الكامنة داخله سرعان ما تطفح على سطح شخصيته . وهذا احتمال قائم دائما فى حالات الانتقال الفجائى من حالة لحالة أفضل منها بإمكانات أكبر وأقوى .

وهذه كانت سمة مشتركة فى معظم الثورات أو الانقلابات التى شهدتها دول العالم الثالث فى النصف الثانى من القرن العشرين . فالثوار عندما ينتقلون من حالة المعارضة والمطاردة والاضطهاد إلى حالة النصر والحكم والسطوة ، يصبحون معرضين للإصابة بالزئبقية ، خاصة الذين

يجدون فى الثورة الناجحة فرصة العمر لتحقيق كل ما فاتهم فى سنوات الضنك والتقشف . لكن يظل الانتقال الفجائى للحكم والسلطة والسطوة عاملا محركا ومثيرا لذلك المرض الكامن الذى لم يكن معروفا حتى من قبل صاحبه . ومن الواضح أن الأمثلة على الأفراد المنحدرين من طبقات كادحة وفقيرة ، الذين انضموا إلى الجمعيات السرية والتنظيمات الثورية ، وأصبحوا غاية فى الانتهازية ، بمجرد أن أصبحوا قادة ومسئولين ووزراء ، أمثلة عديدة ومعروفة .

والحركات النقابية نفسها وسط أو مناخ يغرى بالسلوكيات الزئبقية بسبب ما تتيحه من إمكانات انتهازية وتسلقية . فالعمال المعدمون القادمون من قاع المصانع أو المناجم أو المحاجر أو الصحارى ،عندما يتمكنون من قواعد اللعبة النقابية ، سرعان ما يتحولون إلى أفراد زئبقيين، انتهازيين ، بيروقراطيين ، يجيدون المناورات والتغرير بالتوجهات العمالية، ويندمجون فى اللعبة السياسية عندما يقفزون على مقاعد القيادة، حيث النفوذ والمؤتمرات الدولية والرواتب بدون عمل سوى الخطب والندوات والاجتماعات الدورية التى لا تخرج عن نطاق استعراض المهارات الكلامية والتلاعب بالآراء والأفكار .

والزئبقية أنواع متعددة يمكن تصنيفها حسب المجالات المختلفة التى تسرى فيها ، لكن هناك خاصية مشتركة فى هذه الأنواع المتعددة وهى أنها جميعا تستعمل السياسة والمبادىء وسيلة لتلك الغاية ، وهى تتلون وتغير مواقفها السياسية وتوجهاتها العقائدية حسب مقتضيات تحقيق ذلك

الهدف ، أى أنها تفصل بين قناعة الضمير والموقف الذى تتخذه فى عملها السياسى . ولذلك فإن أوجه الاختلاف فيما بين أنواع الزئبقية ، ترجع إلى اختلاف نوعية المصلحة الذاتية التى تسعى لتحقيقها .

هناك فئات زئبقية تسعى لمصالح اقتصادية وأخرى لمصالح وسلطات سياسية ، وهناك فئات تسعى للاثنين معا ، وهذه ظاهرة شائعة للغاية . كما يمكن أن تختلف الزئبقية فى نوعية الأدوات التى تستخدمها ، فمنها ما يستخدم الثقافة العالية ، ومنها ما يستخدم الملكات الشخصية فى الخداع والبراعة فى المناورة والإقناع ، ومنها ما يستخدم القوة العائلية والعشائرية أو النفوذ الاجتماعى أو الدينى ، ومنها ما يستخدم التكتل السياسى وتشكيل الأحزاب ، وحتى صياغة النظريات العقائدية .

وهناك زئبقية بدائية فجة ، ذات أهداف محدودة مباشرة . وهناك زئبقية متطورة ذكية تستخدم الأساليب الحديثة فى التنظيم والدعاية والفكر ، وذات مطامح واسعة بعيدة المدى ، تصل إلى حد السيطرة على الحكم . هناك أيضا زئبقية مباشرة قصيرة النظر ، تسعى لتحقيق غاياتها عن أى طريق مهما كان نوعه ، فتتحالف مع كل من يساعدهم على تحقيق ذلك حتى لو كان الشيطان نفسه ، ويصدر عنها أى نوع من العمل مهما كان ، طالما أنه يساعدها على تحقيق أهدافها . وأما الزئبقية بعيدة النظر فهمها أن يكون الأسلوب مبطنا ومعميا وغير مباشر ، فتحاول أن تكسب سمعة وطنية . فهى اذا احتاجت أن تقدم على عمل يستنكره الرأى العام قامت به بأسلوب لبق وخفى ، واختارت التعامل

الملتوى غير المباشر ، فتدفع لذلك غيرها بعد أن تمنيهم بالمنح والامتيازات . وهذا النوع الحديث من الزئبقية قد تطور بفضل تطور العصر . مثلما حدث تماما للزئبقية السياسية الدولية التى تخلت عن الاستعمار بالسفن الحربية واحتلال البلاد وحكمها بالقوة المباشرة ، إلى الاستعمار الجديد : استعمار النفوذ الاقتصادى والحكومات الوطنية الصورية . . . الخ .

وفى عصرنا هذا أصبحت للزئبقية قواعدها وقيمها وتقاليدها وسلوكياتها التى تشكل منظومة فريدة من الانتهازية والنفاق والتملق والرياء والكذب والمراوغة والخداع واللف والدوران بحيث لم يعد الخط المستقيم هو أقصر خط بين نقطتين . وهى منظومة لم تعد فردية وشخصية بهدف التسلق والصعود والحظوة والتربح والإثراء فحسب ، بل أصبحت منظومة دولية تتبارى فى نطاقها الدول ، خاصة الدول الصغيرة التى تسلك سلوك صغار الزئبقيين ، فتنافق الدول الكبيرة وتتغزل فى جمالها وروعتها وبهائها وعظمة مبادئها الإنسانية الرفيعة التى تسعى حثيثا لتحويل الدنيا إلى جنة الله فى أرضه ، وعندما تواجه نظراءها من الدول الصغيرة تبرر نفاقها بأنها واقعة تحت ضغوط اقتصادية لا مهرب منها ، ولذلك فهى تطبق المثل الشهير : « مكره أخاك لا بطل » .

وإذا كان من الممكن أن تصبح حجة الدول الصغيرة الفقيرة مقبولة فى هذا المجال ، فإن حجة الدول الكبيرة الغنية المتقدمة لا يمكن تبريرها بأية حال من الأحوال . فهى تملك الثروة والقوة والسطوة التى تغنيها عن

انتهاج المسالك الزئبقية ونصب الشراك الخداعية ، ومع ذلك فهى لا تشعر بأى حرج أو خجل فى ممارسة اللعب على الحبال ، والطعن فى الظهر أو فى الظلام ، وافتعال المعارك المزيفة ، والتلاعب بالألفاظ ، وارتداء الأقنعة المتناقضة ، والتضارب بين الأقوال والأفعال ، ورفع الشعارات الإنسانية السامية البراقة لتغطية المؤامرات المسمومة التى تحاك بليل ، والكيل بكيلين فى القضية الواحدة ، والإصرار على التغنى بالشرعية بحيث يتحول أى هجوم على الدول الكبيرة بمثابة هجوم على الشرعية نفسها ، والضمير الذى يتحرك طبقا لتوجهات المصالح الضيقة متغاضيا عن الكذب المفضوح والمصداقية الغائبة والمعايير التى تكافىء المعتدى وتعاقب الضحية .

ونظرا للتحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية الخطيرة التى يمر بها العالم الآن بعد انتهاء الحرب الباردة وسقوط النظام العالمى ذى القطبية الثنائية ، ونظرا للسيولة بل والميوعة التى تميز التفاعلات الدولية الجديدة التى تسمى ظلما بالنظام العالمى الجديد ، فإن الزئبقية أصبحت المنهج الأساسى لمعظم السياسيات بدليل احتوائها لكل من الدول الصغيرة الفقيرة والدول الكبيرة الغنية على حد السواء . لكن الزئبقية كعادتها اتخذت لنفسها أشكالا متعددة ومتباينة على مستوى السياسيات الداخلية لكل بلد ، والتى تختلف باختلاف المستويات الحضارية التى تتراوح بين التقدم والتخلف .

ففى مراحل الاستقرار سواء على مستوى التقدم أو التخلف تعانى

الزئبقية من احتمالات تعريتها أولا بأول . إن المجتمع المتخلف الراكد صارم فى التقيد بالتقاليد والأعراف والأخلاق المتعارف عليها ، ولا يتسامح مع من يخرج عليها ، ويحكم عليه بصرامة ، حتى إنه يكبل حرية الفرد ، ويخنق مبادراته ونزعات التجديد فيه . وإذا كانت هذه الخصائص تمنع التقدم ، إلا أنها تضيق الخناق على الزئبقية التى لا يحلو لها سوى التلون والمراوغة وعدم مراعاة أية مقاييس متعارف عليها .

والمجتمع المتقدم المستقر من جهة أخرى ، ذو قيم مستقرة نوعاما ، وذو مقاييس ثابتة إلى حد ما ، وهى إن تغيرت ، فتتغير ببطء . وهذا الاستقرار بدوره لا يتيح فرصا كثيرة للزئبقية كى تنتشر بطريقة علنية . أى أن استقرار القيم والمقاييس ، سواء أكان فى مجتمع متخلف ، أو فى مجتمع متقدم ، من شأنه أن يتعارض مع الطبيعة الزئبقية فى النظر إلى الأمور والتعامل معها ، ولا يخدم مصالحها على أية حال ، وبالتالى يضيق الخناق عليها .

أما فى مرحلة التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية سواء على المستوى المحلى أو العالمى ، فإن الزئبقية تجد فرصتها الذهبية لأن القيم القديمة تكون قد فقدت سيطرتها فى حين لم تترسخ القيم الجديدة بعد . وذلك بالإضافة إلى التغيرات الحادة الجارية فى مواقع الطبقات وفى ميزان القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية . فالطبقات القديمة فقدت مكانتها الأثيرة وأصبحت مهددة بالاضمحلال الأمر الذى يدفع بعض أفرادها إلى محاولة الحفاظ على بقايا هذه المكانة الأثيرة والمصالح المادية

المرتبطة بها ، باستخدام الوسائل الزئبقية الكفيلة بدفع حالة الخطر والتهديد بعيدا عنها بقدر الإمكان . كذلك فإن الطبقات الصاعدة على السلم الاجتماعى تجد نفسها وهى تنتقل من حالة إلى حالة أحسن منها بمراحل عديدة ، وقد أصيبت بحالة من الاختلال وفقدان التوازن ، فلا تضع حدوداً لشراهتها ولسان حالها يتساءل : « هل من مزيد ؟! »

ومما يساعد على انتشار الزئبقية فى مرحلة التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية هو تلك الحالة العصبية التى تلازم المجتمع وتصيبه بالتوتر والقلق والهياج وعدم الاستقرار ، فيختلط الحابل بالنابل ، ويصعب تمييز الخطأ من الصواب فى بعض الأمور ، ويضعف تحكيم العقل فى المحاسبة والحسم فى إصدار الأحكام . وهذه كلها ظروف وأوضاع تناسب التسلل الزئبقى لأنها تضعف من رقابة المجتمع ومقدرته على التدقيق فى الأمور وتمييز الخير من الشر .

وعندما يشتد الصراع بين القديم والجديد ، تكثر التقلبات السياسية ، ويسود المجتمع عدم الاستقرار والقلق بل والفزع . واذا ظلت الأمور على ما هى عليه أطول من اللازم . فسرعان ما يسيطر الملل واليأس والضيق والتعب على الناس ، فيصرفون النظر عن متابعة الأمور ، وتصبح اللامبالاة السمة الأساسية لسلوكياتهم . وبالتالى يصبح المجال مفتوحا أمام الزئبقية ، فردًا أو أفراداً أو كتلا سياسية للظهور واغتنام الفرصة والسيطرة على مقاليد الأمور .

وفى مرحلة التحول هذه ، تأخذ الزئبقية عادة شكلا متطوراً ومعقدا

ومتشعبا . فقد تتمثل فى الأفراد المندسين فى الإدارة الحكومية والمحيطين بالسلطة وبالحزب الحاكم ، وهدف هؤلاء الأفراد يكون عادة محدودا ، ينحصر فى تحقيق مصالح شخصية مادية ومعنوية عن طريق تأييد السلطة وتنفيذ الأوامر والتلون السياسى وأصناف النفاق والتملق المعروفة التى تجعلهم ملكيين أكثر من الملك . ولكن هذه الزئبقية أقل خطرا من الزئبقية الواسعة المطامح التى تسعى للاستيلاء على الحكم والتى تنتظر اللحظة التى تطرح فيها نفسها كبديل للحكم القائم .

وهذا النوع الخطير من الزئبقية يظهر بصفة خاصة فى مراحل التحول من الديكتاتورية التى تكبت الأنفاس إلى الديمقراطية التى تتيح لكل قوى المجتمع فرصا متكافئة للتعبير عن نفسها ، مما قد يغرى فرد ، أو مجموعة أفراد ذوى طموح شخصى قوى للحكم مقرونا بصفات شخصية معينة وشعارات مثالية جذابة ، لكى ينقضوا على الديمقراطية باسم الديمقراطية التى لولاها لما واتتهم الجرأة على القيام بمثل هذه الحركات . وهذا التجمع يكون عادة واسع المطمح ، وذا غاية أو استراتيجية بعيدة ، وطاقات وكفاءات لا تقنع بأية خطوة محدودة ، ورغبات محمومة فى الحكم والسلطة والنفوذ والسيطرة والجاه المادى والمعنوى ، أى أن المصالح الشخصية والجمعية التى يعمل لتحقيقها ليست قصيرة الأمد أو محدودة كما هى عند الموظف البيروقراطى الزئبقى . إن توجهاته تكون عادة واسعة وشاملة لتغطى الحكم والسلطة والسطوة ليس فى بلده فحسب بل فى بلاد أخرى يستشعر فيها ميلا نحو اعتناق

مبادئه والسير خلف شعاراته . وهذا الزئبقى يرى فى عمله جهدًا متواصلا وطويل الأمد ، قد يستغرق سنوات عديدة أو حياته كلها .

وبعد أن يظهر هؤلاء الزئبقيون يسعون لاجتذاب عناصر زئبقية أخرى ذات مصالح سياسية أو اقتصادية مشابهة أو الاثنين معا ، لأن العناصر الجديدة تجد فى العناصر الأولى فرصة سانحة وقوة موجودة بالفعل ، تأمل أن تحقق مصالحها عن طريقها . وهكذا يتكون التجمع الزئبقى وينمو ويتطور من المرونة والمراوغة والسيولة فى البداية إلى الصلابة والتحجر والمواجهة كلما اكتسب أرضا جديدة . ذلك أن حالة المرونة الزئبقية حالة مؤقتة لحين الإعلان عن الهوية الحقيقية ذات الملامح المتبلورة والصلبة .

والزئبقيون قد يعملون أفراداً ، لكنهم فى مراحل التحول السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى يميلون عادة إلى التكتل والتجمع وتأليف الأحزاب المتاحة فى ظل النظام الديمقراطى . والتكتل الزئبقى الذى يسعى جاهدًا للسيطرة على الحكم فى مرحلة التحول ، يجب أن يغطى أهدافه الحقيقية برفع الشعارات المثالية وإعلان العقائد والنظريات والمبادىء التى ترسم صورة مغرية لجنة المستقبل السعيدة ، وطرح البرامج البديلة ، وتوليف النظريات المعارضة ، لكنها كلها شعارات وعقائد ونظريات وبرامج ومبادىء غامضة عادة لسبب واضح ، هو أن تكون زئبقية بدورها حتى تصبح قابلة لشتى التفسيرات ، وبالتالى تكون قابلة

للتغيير والتحريف والتلوين ، وذلك حتى لا تشكل قيدًا على مواقف التكتل وتحركاته وتصرفاته .

وعادة ما تكون برامج التجمعات الزئبقية براقة ، طنانة ، رنانة ، تحتوى كل شىء وتعد بكل شىء : الممكن وغير الممكن ، السهل والصعب ، وحتى المستحيل لتستطيع أن تجذب سذج الناس ، ولتستعمل ذلك مادة زئبقية للدعاية . فالزئبقية لا يهمها أن تكيل الوعود ولا يهمها أن تكذب على الشعب لأنها تهدف للكسب السياسى المؤقت فى كل مرحلة من مراحلها ، وليس لتحقيق تلك الوعود .

وتتسم هذه التجمعات عادة بالواقعية الزئبقية فى علاقاتها السياسية ، ومواقفها الفكرية ، فهى تنطلق من واقع التيارات السياسية الموجودة ، ومن واقع المذاهب الفكرية المتصارعة ، وإن كانت تدعى رفضها لها ، ففى ممارسة اللعبة السياسية لا تتجاهل هذه القوى والأفكار حتى لو كانت أعدى أعدائها . إن الزئبقية الحديثة مثلا يمكن أن تتبنى اليسار لأبعد الحدود ، وأن تدعمه لأبعد الحدود ، لأبعد مما يذهب إليه اليسارى نفسه ، وقد ترفع شعارات غاية فى الغرابة والتطرف حتى تزايد على خصومها وتحاول إحراجهم ، وقد تتبنى أفكارا سابقة على العصر بمراحل ، ادعاءً للريادة والبطولة . وهى تعلن تأييدها بسرعة ثم تسحبه بنفس السرعة حسب الأحوال . وإذا أيدت فقد تذهب لأبعد من المطلوب ، واذا سحبت تأييدها لتتغير فى اتجاه الموجة فإنها تتراجع لتؤيد النقيض التام لذلك .

وتتميز الزئبقية السياسية فى هذه المرحلة بالمرونة الفائقة ، والقدرة الفذة فى المراوغة وتكوين الصيغ المختلفة للعلاقات مع غيرها . فالصيغ التى يمكن أن تأخذها وتتبناها علاقات التجمع الزئبقى بالقوى السياسية الموجودة فى مرحلة التحول ، لا حصر لها ، ولا يمكن تحديدها بأنماط مقننة ثابتة ، لأنها علاقات تختلف من يوم لآخر ، ومواقف تتراوح بين النقيض والنقيض الآخر فى وقت قياسى . وهى تستفيد مثلا من لعبة الشد والجذب بين اليمين واليسار لأبعد الحدود ، إذ تستطيع أن تكون مع اليسار لأبعد الحدود ، ومع اليمين لأبعد الحدود طبقا للكفة الراجحة لأحدهما ، لكن إذا ظلت الكفتان تتأرجحان فإنها يمكن أن تلجأ إلى المهادنة فى الأرض المحايدة التى تقع بين التأييد والرفض حتى تتضح الأمور وتستقر . كذلك يمكنها مثلا أنه تظل مع اليسار شكلا ومع اليمين فعلا من خلال رفع الشعارات التى تغطى الأفعال الحقيقية برغم تناقضها معها ، وربما تحالفت مع بعض عناصر اليمين ضد عناصر أخرى فى نفس التحالف . . الخ . فهى تسرى كالزئبق الذى لا يستطيع أحد الإمساك به والتحكم فيه ، وربما كانت قطرة واحدة منه فى أذن أية حركة سياسية كفيلة بتحويلها إلى جثة هامدة وحفرية تاريخية . ذلك أن مظهر الزئبقية السياسية ناعم ومرن وبراق للغاية ، لكنها تخفى من الأنياب والمخالب السامة ما يمكنها من القضاء على خصمها فى الوقت المناسب .

وأحيانا تنفى الزئبقية السياسية عن نفسها مظاهر المراوغة والرقص

على كل الحبال والأكل على كل الموائد بأن تحاول أن يكون لها تنظيم ولو بصورة شكلية . فتستخدم الإعلام ، وأساليب الدعاية السياسية . والاتصال بالأوساط الشعبية ، واصطناع الفلسفات والنظريات والعقائد، والاستفادة بكل الظروف المتاحة ، وإعلان الشعارات المناسبة لكل ظرف من خلال التعرف على رغبات الشعب والخيارات التى تستهويه ، وذلك لتوحى للقوى السياسية الأخرى أن لها جذوراً ضاربة فى الوجدان الشعبى . فهى مثلا ترفع فى وجه النظام اليسارى شعارات الديمقراطية وحرية النشاط الحزبى إذا لم يكن هناك تهديد أو خوف من ممارسة هذه العنتريات ، وترفع فى وجه النظام اليمينى شعارات التقدمية والثورية إذا لم يعطها ما تريد وإذا لم يكن هناك خوف من بطشه بها ، ولكنها سرعان ما تهادنه إذا حقق لها بعض مصالحها لترفع فى وجه المعارضة شعار الاستقرار والهدوء .

ولا تكل الزئبقية السياسية من المطالبة بالعمل والإنجاز ، ومن الهجوم على السلبيات وأوجه القصور ، لكنها فى الوقت نفسه تعارض الحكم الوطنى الكفء السائر فى طريق العمل الإيجابى والبناء المتواصل ، بكل الوسائل لتعرقل مسيرته ، ولتمنعه من العمل ، حتى إذا نجحت فى مسعاها ، اتهمته بالعجز والفشل وهكذا . وكل ذلك منطقى بالنسبة للزئبقية السياسية لأنها تريد أن تكسب أرضا جديدة ، وأن تصل للحكم بكل الطرق والوسائل ، خاصة إذا كانت تمارس نشاطها فى ظل نظام ديمقراطى يؤمن بالتعددية السياسية . أما تحت

وطأة الديكتاتورية فغالبا ما يقتصر نشاطها على تدعيم مكاسبها الاقتصادية والاجتماعية فقط لأنها تعلم جيدا أن الديكتاتور لن يرحمها إذا اشتم رائحة أية تطلعات سياسية لها .

ولعل أبرز مواهب الزئبقية السياسية يتمثل فى إجادتها لقواعد اللعبة السياسية وفنونها ، فذلك أقوى ما لديها من أسلحة ، وتحاول استخدامه فى كل مجالات نشاطها لأنه يمكنها من التلون الذكى ، والقدرة على المراوغة والمناورة ، وخداع الخصم ، وتضليل الناس ، وكسب المؤيدين ، وتنويع الاتصالات ، والضرب على الأوتار الحساسة وغير ذلك من الوسائل والأساليب التى يصعب حصرها والتى أغرت الكثير من الزئبقيين بالاعتماد عليها نظرا للنجاح الذى حققته أو يمكن أن تحققه . وهو اعتماد يصل إلى درجة الثقة التامة أو حتى الغرور .

ولكن هذا الغرور أوقع الزئبقية السياسية فى بعض الأحيان فى مزالق التفكير غير العلمى الذى يميل إلى الفهلوة التى تتوهم أنه بالدهاء وحده ، وبالمناورة وحدها يمكن أن تصل إلى الحكم وأن تقود البلاد إلى آفاق المستقبل . لكنها لاتدرك أن النشاط البشرى الذى تسيره الغريزة وتدفعه الأنانية والذاتية يمكن أن يقود صاحبه بعيدا عن العقل وبالتالى بعيدا عن العلم . وأية تحركات لا تعتمد على المنهج العلمى كفيلة بإدخال صاحبها فى طرق مسدودة ودوائر مفرغة ومتاهات جانبية . ولذلك تبدو الزئبقية السياسية فى أخطر صورها عندما تتسلح بالمنهج

العلمى الذى توظفه فى تنفيذ أهدافها العاجلة أو الآجلة على حد السواء.

ولعل مبدأ ماكيافيللى الذى يؤكد أن « الغاية تبرر الوسيلة » خير منهج للزئبقية السياسية فى تنفيذ أهدافها . فهى على استعداد للتعاون مع أية قوة ، وعقد التحالفات مع أية جهة مهما كان نوعها ، وبدون تردد أو حرج ، إذا ما اقتضت مصلحة اللعبة السياسية التى هى مصلحتها الشخصية كذلك ، لكن تظل أساليبها غير مباشرة ومبطنة ، وتبتدع لتغطيتها شتى الصيغ والأساليب ، وتنتهز الفرصة الملائمة والتوقيت المناسب الذى تحدده بحاستها الزئبقية ، وذلك بالاستفادة من الإجهاد الذى يعاينه المجتمع فى مراحل التغييرات السياسية والتحولات الاقتصادية ، ومن التذمر الناتج عن التضحيات التى تتطلبها هذه المراحل . وهى تحاول أن تستفيد من تناحر القوى السياسية فى الساحة ، ومن إنهاك بعضها لبعضها الآخر لتقفز هى بديلا عن الجميع . إنها تحاول أن تضرب الجميع بدلا من أن تدخل طرفا فى النزاع قد يقضى على فرصتها المتأرجحة بين هذا الطرف وذاك .

ولذلك يتحتم على الحكم الوطنى أن يحدد نوعية الزئبقية التى يواجهها، ومدى خطورتها . وسعة مطامحها ، ونوعية كفاءتها ، حتى يسد عليها كل المنافذ التى يمكن أن تتسلل منها . فالزئبقية غير المتكتلة التى يمثلها الأفراد الطامعون فى الترقى وتسلق السلم الاجتماعى من موظفين أو بيروقراطيين بصفة عامة ، لابد أن تعامل بصورة مختلفة عن

الزئبقية المتكتلة الطامعة فى الحكم ، التى تطرح نفسها كبديل للنظام الوطنى . كما أن الزئبقية المنبثة فى صفوف المؤسسات الشعبية ، شىء مختلف عن الاثنين معا ، الأمر الذى يتطلب موقفا آخر وهكذا .

وهناك نوع من الزئبقية يظل كامنا تحت وطأة الديكتاتورية ، لكن مع انتقال المجتمع إلى النظام الديمقراطى وتغير الظروف المعنوية والأدبية التى تحيط بالفرد ، وتوافر الفرص الجديدة السانحة للكسب والانتفاع ، فإن هذه الزئبقية سرعان ما تطفو على السطح للانقضاض على المكاسب المؤكدة والمحتملة . فالنظام الديمقراطى يحتاج إلى مؤسسات وأطر لإدارة الدولة طبقا لمفهومه مما يشكل فرصة سانحة للزئبقية المتسلقة ، وما على الوعى الديمقراطى فى هذه الحالة إلا أن يعريها ويكشفها لتصفيتها بشكل حاسم ، خاصة وأن مؤسسات المجتمع الديمقراطى وقوانينه ونظمه وأحواله تساعد على المصارحة والمواجهة بدون حساسيات ، مما يطمس النوازع الزئبقية والانتهازية أولا بأول ، وفى الوقت نفسه يحمى القيادات السياسية من الوقوع فى شرك المغريات لأن شيئا لن يبقى حبيس الظلام .

والزئبقية السياسية فى ظل الديمقراطية تلجأ دائما إلى المزايدة ، فتبدو أكثر ديمقراطية من الديمقراطيين أنفسهم ، فهى تعد بأن تمنح الشعب أكثر مما يمنحه النظام الراهن بل وبدون الأخطاء التى تقع فيها الديمقراطيات الوليدة والتى لابد للشعب أن يدفع ثمنها . فالديمقراطية بطبيعتها تسمح بتعدد الآراء الذى قد يصل إلى درجة الصراع والتوتر .

مما قد يضعف القوى الديمقراطية على الساحة السياسية ، عندئذ تطرح الزئبقية أو التجمع الزئبقى نفسه كبديل عن الجميع ، وكمنقذ للبلد من مظاهر عدم الاستقرار التى تنتابها ، وذلك بعد أن استغل تسامح الديمقراطية وسعة صدرها ، ليرسخ من جذوره ، ويضاعف من قوته استعداداً للانقضاض على السلطة . ولذلك يتحتم على الوعى الديمقراطى أن يقف بالمرصاد لمثل هذا التجمع الذى لا يجب الاستهانة به لممارسة التخريب الثقافى والفكرى ، وإشاعة التوجهات المضللة ، وتوليف النظريات المفتعلة ، وكل ما من شأنه إهدار الديمقراطية من داخلها .

من هنا كانت النبعة الملقاة على عاتق الديمقراطيين الحقيقيين ، لأن حماية الديمقراطية من مناورات الزئبقية ، تحتاج إلى نضال فكرى ، وحملات ثقافية لتنوير الرأى العام ، وتعرية وتفنيد جميع أدبياتها مهما كانت تافهة . ولذلك يجب كتابة التاريخ السياسى للزئبقية بصورة تفصيلية ودقيقة على سبيل التوعية المتجددة والتنوير الدائم . وهو ما تهدف إليه هذه الدراسة وإن كان بصورة جزئية لأنها لا تستطيع أن تلم بكل جوانب الزئبقية السياسية وعناصرها ، ولذلك نتمنى أن تكون بمثابة افتتاحية لدراسات أخرى فى هذا المجال الحيوى والمثير بأقلام كتاب وزملاء آخرين ، خاصة وأن شعبنا يملك من الوعى واللماحية والذكاء ما يمكنه من تعرية كل الأقنعة التى تحاول الزئبقية أن تخفى بها حقيقة ملامحها الهلامية والمتقلبة . وهو الوعى الذى تجلى فى أمثالنا

الشعبية التى تناقلها الوجدان المصرى عبر الأجيال والقرون والتى يمكن أن نقدم منها بعض النماذج الآتية للتدليل على هذا الوعى الجوهرى فى الشخصية المصرية . وهى أمثال لا تحض على الزئبقية السياسية بقدر ما تعريها وتكشف مناوراتها ، إذ أن الحلال بين والحرام بين فى النهاية ، ولذلك فهى تحمل فى طياتها سخرية مريرة من الأوضاع المقلوبة وإن كان ظاهرها يوحى لأول وهلة بأنها تحض عليها . وهى سخرية لماحة تترك للمستمع الفرصة كى يلتقط المعنى الخفى :

- إذا ابتليت بالشحاتة عليك بالباب العالى .
- إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه .
- يربطوا حمارهم جنب حمار العمدة .
- عادى غفير ولا تعادى أمير .
- يعمل من الجلة كرملة ، ويخلق من الفسيخ شربات .
- ناس تخاف ماتختشيش .
- قالوا للدبة طرزى قالت : دى خفة أيادى .
- الدوى على الودان أمرّ من السحر .
- اللى يتجوز أمى أقول له يا عمى .
- يا رايح كتر م الفضايح .
- حلال كلناه ، حرام كلناه ، وكله ماشى .
- كل والأكل فرص .

- كل وبحلق عينيك ، عزومة واتحسبت عليك .
- اللى ماتاكل فى فرحه ، كل فى عزاه .
- مفتاح السر كلمة ، ومفتاح البطن لقمة .
- اللى تعرف ديته اقتله .
- اتغدى بالديب قبل مايتعشى بيك .
- كل الدود قبل ماياكلك .
- بعد العيدماينفتلش كحك .
- يا فرعون ايه فرعنك ؟! قال : مالقيتش حد يردنى .
- خلص تارك من جارك .
- ياللا نفسى .
- يا روح ما بعدك روح .
- اللى له ضهر ، ماينضربش على بطنه .
- اللى مالوش كبير ، يشترى له كبير .
- الإيد اللى ماتقدر تبوسها ، أقرصها .
- إن لبست إلبس حرير ، وإن صاحبت صاحب أمير .
- اضرب الطينة فى الحيطة ، إن مالزقت علمت .
- العيار اللى مايصبش ، يدوش .
- جحا أولى بلحم طوره .

- زى الدبان ما يحطش إلا على العيان .
- إن لقيت بلد تعبد عجل ، حش برسيم واديله .
- الباب اللى يجيلك منه الريح سده واستريح .
- يدى الحلق للى بلا ودان .
- زى الحاكم مالوش إلا اللى قدامه .
- إن بليت يا فصيح . لا تصيح .
- رضينا بالهم ، والهم مارضى بينا .
- قبل ما تفصّل قيس .
- جزا المعروف متلوف ، وجزا المعروف عشرة كفوف .
- آخر خدمة الغز علقة .
- ابن الحرام ما خلاش لابن الحلال حاجة .
- الضمانة أولها شهامة ، وثانيها غرامة ، وثالثها ندامة .
- الضامن غارم .
- الشرك عرك .
- ما ينوب المخلص إلا تقطيع هدومه .
- يا داخل بين البصلة وقشرتها ما ينوبك إلا صنتها .
- كل مع الكافر ولا تاكل مع طويل الأظافر .
- يموت الزمار وصباعه بيلعب .

- ماتفرحش للى رايح ، قبل ماتشوف اللى جاى .
- اللى يعمل ضهره قنطرة يستاهل الدوس .
- اللى مايخدوش الحاكم ، ياخده الموت .
- حاكمك غريمك ، إن ما طعته يضيمك .
- زى كرابيج الحاكم ، اللى يفوتك أحسن من اللى يحصلك .
- اللى ياكل مرقة الحاكم تنحرق شفته .
- اللى يخش بيت الإمارة يخيط بقة بدوبارة .
- ابعد عن الشر وغنى له .
- السلطان من بعد عن السلطان .
- إحنا مالنا .
- هو احنا حانصلح الكون .
- مافيش فايدة .
- ياعم خليك فى حالك .
- الدنيا لا تخلى الراكب راكب ولا الماشى ماشى .
- الحلم سيد الأخلاق .
- الدنيا زى الغازية ترقص لكل واحد شوية .
- الدنيا يوم تدى ويوم تاخد .
- أردب ماهولك ما تحضر كيله تتعفر دقنك وما ينوبك غير شيله .

- داري على شمعتك تقيد .
- كلام الليل مدهون بزبدة ، يطلع عليه النهار يسيح .
- سلامة الإنسان في حلاوة اللسان .
- لا تآمن على الخيل إن هلت ، ولا الشمس إن ولت .
- الشهر اللى ماهولك ماتحسبش أيامه .
- الحيطان لها ودان .
- اذا كانت الشطارة بالقوة كان التور ياخد باشا .
- اللى تقول عليه موسى تلاقيه فرعون .
- أكل الملوك شرف ما هواش علف .
- إذا عدل الحاكم جارت الرعية .
- إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع .

الفصل الخامس
الزئبقية المهنية

ينطبق مفهوم الزئبقية المهنية على كل من الزئبقية البيروقراطية والزئبقية الحرفية . وإذا كانت المرونة فضيلة مطلوبة سواء فى الأجهزة البيروقراطية ، أو فى المؤسسات الحرفية سواء على المستوى الآلى أو المستوى اليدوى ، فإن هذه المرونة لا تعنى االزئبقية على الإطلاق ذلك أن درجة الجمود فى الجهاز الإدارى تعتبر مقياسا حساسا لدرجة التخلف الاقتصادى فى أى مجتمع ، ذلك لأن التنمية الاقتصادية تتنافى مع قيود البيروقراطية الإدارية التى لابد أن تؤثر على كفاءة الإدارة الإنتاجية .

والبيروقراطية فى حد ذاتها ليست عيباً ، فهى الإدارة عن طريق المكاتب سواء كانت فى أجهزة الحكومة أو القطاع العام أو القطاع الخاص . ولا تحمل فى طياتها أى خطر طالما أن الجهاز الإدارى يعمل بنشاط وكفاءة وأمانة وإخلاص . فهى نظام لابد منه لتسيير دفة الأمور، وإساءة استخدامها لا يعنى فساد جوهرها . والدليل على ذلك أن الجهاز البيروقراطى فى الدول المتقدمة المتصدرة لحضارة العصر ، يتميز بالدقة ، والنظام . والسرعة ، والفاعلية ، وتوفير الجهد والطاقة ،

وتجنب الإسـراف ، وتحقيق الأربـاح ، وتطوير الإنتـاج كما وكيفـا .

أما الجهاز البيروقراطى الذى تشكو منه بعض المجتمعات المتخلفة الشهيرة بالنامية ، فذلك لأنه يعنى تحكم المكاتب بهدف تحقيق أهداف شخصية ومادية ، لمن يجلسون خلف هذه المكاتب ، مما يعطل الأعمال ويعوق عجلة الإنتاج ويؤدى إلى التبذير والفساد والظلم والانتهازية والتسلق والكذب والمراوغة واللف والدوران ، والتهرب من المسئولية ، والاهتمام بالشكليات ، والتنفيس عن عقد النقص المترسبة داخل الموظفين الذين لا يهمهم سوى الدفاع عن مراكزهم ، والمحافظة على مكاسبهم المادية ، خاصة إذا كانوا يتعاملون مع الجمهور الذى ترمى به المقادير أمامهم .

هنا تبرز الزئبقية البيروقراطية التى تمكن الموظف من تحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب دون أن يقع تحت طائلة القانون ، ولذلك فإن تطبيق بعض الأساليب الإدارية الحديثة المتفق عليها علميا على مجتمعات متخلفة لا يأتى بنفس النتائج الإيجابية التى تعود على المجتمعات المتقدمة التى يشعر فيها الموظف بأن احترامه لأداء وظيفته هو جزء من احترامه لذاته . ولا شك أن المستوى الاقتصادى المرتفع الذى يتمتع به مثل هذا الموظف يجنبه اللجوء إلى الحيل والمناورات والمراوغات الزئبقية التى قد يضطر إليها نظيره فى المجتمعات المتخلفة التى قد تعجز عن إمداده بأسباب الحياة الكريمة . ففى المجتمع المتقدم يحقق النظام الإدارى العلمى الحديث كفاية إدارية وإنتاجية فى حين يفشل نفس

النظام فى المجتمع المتخلف وينتهى به الأمر بالفساد وإعاقة الإنتاج وزيادة التكاليف وغير ذلك من السلبيات . أى أن العبرة ليست بالنظام الإدارى ولكن بنوعية الإنسان الذى يقوم بتطبيقه .

ولذلك تنتشر الزئبقية فى المجتمعات المتخلفة سواء داخل الجهاز البيروقراطى نفسه بين الرئيس والمرءوس ، أو بين الجهاز والمتعاملين معه من الجمهور الذين يدرسون بدورهم الثغرات أو المداخل غير المباشرة التى تمكنهم من تلبية حاجاتهم . أى أن قواعد اللعبة الزئبقية تصبح مشاعاً للجميع . وهذا راجع إلى أن العلاقة بين أجهزة الحكومة وجماهير الشعب لم تقنن ولم تتبلور حتى بدايات العصر الحديث ، وإن كانت هذه العلاقة قد تحددت فى بعض الحكومات بصورة شكلية بدون فاعلية حقيقية ، مثل مظاهر الحياة النيابية فى عهد بعض الحكومات الملكية . ولذلك ظلت الحدود بين حقوق الشعب وواجباته ، وحقوق موظفى الدولة وواجباتهم غير واضحة وغير مقننة . بل إن الشعب لم يكن يعرف لنفسه حدوداً وحقوقا حتى يتمسك بها ويدافع عنها . وبالتالى كان السلوك الزئبقى الملتوى هو الأسلوب العملى للحصول على كل ما يمكن الحصول عليه من حقوق أو مكاسب .

وفى المقابل لم يتعلم موظفو الدولة أن واجبهم الوحيد هو خدمة الشعب وقضاء مصالحه . بل إنه من السهل على الموظف الذى يعانى من مشكلات أسرية أو متاعب شخصية أن يعكسها على الجمهور الذى يتعامل معه . فما أسهل أن يسوف أو يراوغ لغرض فى نفس يعقوب

لدرجة أن جملة « فوت علينا بكره » أصبحت من الأقوال المأثورة المرتبطة بالجهاز البيروقراطى !! وقد أدى هذا التوجه إلى جعل الموظفين مجموعة من الأفراد يهمها قبل كل شيء الدفاع عن مركزها والمحافظة على حقوقها ومكاسبها ، حتى تضمن لنفسها الأمن الاقتصادى ، والاستقرار الاجتماعى ، والمركز المرموق . وهى تحرص على تحقيق كل هذا دون الوقوع تحت طائلة القانون الذى تتحول بنوده وأحكامه ولوائحه التنفيذية بين يديها إلى أكبر قدر ممكن من المنافذ والثغرات التى يسهل التسلل منها . وغالبا ما تكون الوظيفة هى المصدر الوحيد للرزق مما يؤدى إلى استغلالها إلى أقصى درجة ، بالإضافة إلى أن واجباتها غير محدودة تحديداً واضحاً . وعلى الرغم من الدقة التفصيلية التى تميز القوانين الإدارية المنظمة للجهاز الحكومى ، فقد ظل رؤساء الموظفين والإدارات بروحهم الديكتاتورية التقليدية يفسرون القوانين بما يتفق مع هوى كل منهم . وفى مواجهة ديكتاتورية الرؤساء لم يكن للمرءوسين سوى أن يتسلحوا بالزئبقية الكفيلة بتحقيق أهدافهم بعيدا عن بطش رؤسائهم ، وربما التقت أهداف الرئيس والمرءوس فى نقاط معينة ، فتصبح الزئبقية منظومة قادرة على احتواء معظم العاملين فى الجهاز الحكومى سواء فى مواجهة أجهزة المتابعة والرقابة والمحاسبة أو مواجهة الصحافة أو الجمهور .

ومع التغيرات والتعديلات التى لا تتوقف أبداً للقوانين الإدارية الموجودة ، وبالإضافة إلى القوانين الجديدة التى تصدر تقريبا بصفة شبه يومية ، فقد اختلط الحابل بالنابل وأصبح من المستحيل أن يوجد العقل

البشرى القادر على احتواء كل هذه التغييرات والتعديلات والتجديدات المستمرة ، مما أتاح الفرصة لجهابذة التفسير أن يلونوا ويكيفوا النصوص الجديدة وفقا لهوى الرئيس فى كل موقع أو جهاز حكومى ، وبلورة الدوافع النفسية المحركة لاتجاهات الموظفين السلوكية التى تتمثل فى المحافظة على الوظيفة كمورد للرزق ، ووسيلة إلى الترقى إلى الدرجات العليا ، وانتهاز الفرص لتسلق السلم الاجتماعى ، وجمع المال والإثراء على حساب الوظيفة . ولذلك لم يكن لأداء واجبات الوظيفة وزن كبير فى نفوس الموظفين ، مما جعلهم بحق جهازا استهلاكيا أكثر منه إنتاجيا ، يعمل لحساب نفسه فى الواقع ، برغم أنه مأجور للعمل فى خدمة المجتمع .

ولذلك تتجلى مرونة بعض الموظفين فى أوضح صورها عندما يتعلق الأمر بمصالحهم الشخصية ومكاسبهم المادية ، لكن هذه المرونة سرعان ما تتحول إلى جمود وتحجر شديدين فى التعامل مع الجمهور الذى لا ترجى منه فائدة مادية . أما الموظف فى الدول المتقدمة فيفخر بدوره كخادم للشعب يشعر بأن عليه واجبا مقدسا نحو الجماعة ، وأن الجهاز الإدارى كله مجند لخدمة الشعب ، فى حين نشأ الموظف فى الدول النامية على أنه صاحب الأمر والنهى ، وله سلطات قد تتفق أو تفوق درجة وأهمية وظيفته الحكومية أو طبقته الاجتماعية أو مقدرته المالية ، مما قد يؤدى إلى اتخاذ الوظيفة كوسيلة للكسب غير المشروع . وفى هذا يقول الدكتور ملاك جرجس فى كتابه « سيكولوجية الشخصية المصرية ومعوقات التنمية » :

« يذهب بعض المتشائمين إلى حد القول بأن إصلاح الجهاز الإدارى فى مصر من الصعوبة بمكان ، لما اكتسبه الموظفون من حصانات سيكلوجية لها سمات خاصة ، تتلخص فى تقمصهم شخصية ذات مركز خاص ، ولما رسخ فى عقلية أفراد الشعب من عقائد نحو قدرتهم على تعقيد الأمور ، وفقا لهواهم ، ولما درج عليه الكثيرون من أفراد الشعب من رشوة الموظفين أو كسبهم بطرق مختلفة لقضاء مصالحهم .

« وحقيقة الأمر أن مشكلة المشاكل فى مصر الآن هى أفراد الجهاز الإدارى والتراث الثقافى الذى ورثه الموظفون وأفراد الشعب ، وليس النظام الإدارى نفسه ، فإن أى نظام يمكن أن يستبدل بنظام آخر ولكن الأفراد وقيمهم الاجتماعية واتجاهاتهم السلوكية ، أى شخصيتهم القومية ، ليس من السهل التأثير عليها سواء كانوا موظفين أو مواطنين .

« إن أغلب الموظفين يجيدون تنفيذ الأوامر والتعليمات دون مناقشة ، وبذلك يبعدون كل البعد عن التصرف الابتكارى الخلاق ، ويتميزون بالتعقيد والبطء الشديدين ، واستنفاد الوقت الطويل فى استيفاء البيانات والفتاوى من الجهات العليا والقانونية ، وذلك لأنهم بعيدون عن المنطق والفكر السليم ، ولأنهم يتقيدون بحرفية القوانين واللوائح العقيمة المتحجرة ، ويتفننون فى وضع العراقيل فى وجه السياسات الجديدة ، إما غيرة على مصالحهم أو خوفا من ضياع نفوذهم أو لإثبات وجودهم » .

وبالطبع فإن هذا التعقيد والبطء ، واستيفاء البيانات والفتاوى ،

والتقيد بحرفية القوانين واللوائح ، والتفنن فى وضع العراقيل ، وغير ذلك من شأنه أن يوجد أرضاً خصبة للزئبقية الإيجابية أو السلبية على حد السواء . ولعل من أهم الدوافع المؤدية إلى هذه الأرض ، الخوف والشعور بانعدام الأمن ، خاصة عند صغار الموظفين . ولذلك فهم يبطنون مالا يظهرون ، ويظهرون مالا يبطنون . بل إن واضع القوانين واللوائح أيضا يعانى من نفس المشاعر والإحباطات لأنه يضعها وهو فاقد الثقة فى أمانة من سيقومون على تنفيذها أو من سيستفيدون منها .

ولعل هذه الزئبقية ترجع إلى الخوف المرضى الزائد فى عقليتنا الاجتماعية الموروثة عبر الأجيال والقرون ، كما ترجع إلى تعدد أجهزة الرقابة على الجهاز الإدارى والتى قد يحدث تضارب فيما بينها ، مما قد يجعل الهدف الأساسى للموظفين هو حماية الذات طبقا لما يقوله المثل الشعبى « من خاف سلم » . وهذا يؤدى بدوره إلى التعقيدات الإدارية الشديدة التى تتوه فيها المصلحة العامة تحت وطأة التكالب بحثاً عن المصلحة الخاصة . ولاشك أن الخوف من العقاب يؤدى إلى الزئبقية السلبية كاستجابة طبيعية له . بل تبدو هذه الزئبقية فى كثير من الأحيان سببا أساسيا فى كثرة الملفات والمستندات التى يلجأ إليها كبار الموظفين وصغارهم لحماية أنفسهم وتحصين إدارتهم ضد الاتهام بالخطأ أو الإهمال أو التسيب أو الانحراف ، لدرجة أن الفروق الجوهرية بين الخطأ والصواب تكاد تنطمس تحت وطأة هذه التعقيدات البيروقراطية وفى عتمة الدهاليز الإدارية .

من هنا كان وجود البيروقراطى الكبير الذى يحرص على تعقيد أعمال إدارته بكثرة الملفات والسجلات بحجة ضبط الإجراءات الادارية وسلامتها ، وهو فى الواقع يتصرف بدافع خوفه الذى يبرره بأنه لا يثق فى موظفيه لعدم دقتهم أو أمانتهم . ومن هنا أيضا كان وجود الموظف الذى يحرص على امتلاك أرشيف خاص به ، يحتفظ فيه لنفسه بصور من كل الخطابات والأوراق التى يخشى أن يقع بسببها فى مسئولية يوما ما . وغالبا ما يكون هذا الأرشيف فى بيته بعيدا عن عيون المكتب ، خاصة إذا كان يحتفظ ببعض أصول الأوراق التى يمكن أن يدافع بها عن نفسه ضد أى اتهام يمكن أن يوجه إليه بسببها فى يوم من الأيام . ولذلك نجد أن الخوف المرضى من المسئولية سبب أساسى من أسباب الزئبقية البيروقراطية .

وتتميز الزئبقية البيروقراطية بالاهتمام البالغ بالشكليات دون الجوهر ، وعدم المبالاة بنتائج تأخير إنجاز الأعمال ، وبالأضرار التى تلحق بالصالح العام أو صالح أفراد الشعب ، فيلجأ الموظفون إلى « تمرير الكرة» ـ على حد تعبير الدكتور ملاك جرجس ـ من مكتب إلى آخر لاستيفاء بيانات أو إجراءات أو تأشيرات لا لزوم لها . وعندما تتوزع المسئولية على أكبر عدد ممكن من المكاتب فإنها تضيع فى الواقع بحيث يصعب حصرها فى مكتب واحد أو خطوة إجرائية معينة . ولعل نماذج التأشيرات المعتادة أكبر دليل عملى على هذه الزئبقية السلبية مثل « مرسل لإدارة كذا للاختصاص » وهى غير مختصة على الإطلاق ، فيرجع الرد

قائلا : « يرد لعدم الاختصاص » ، أو « يرفع للمدير لإبداء الرأى والتوجيه » فيرد المدير بتأشيرة أخرى تقول : « تتبع اللوائح المنظمة فى هذا الشأن » . وغير ذلك من الدوائر المفرغة التى تضيع فيها المسئولية تماما لعدم وجود القرار الحاسم المحدد لها . فمعظم الموضوعات « محلك سر» برغم الاستعجالات المتتابعة والمستمرة ، التى توحى بالحركة والحرص على مصلحة الجمهور .

وتتحول التأشيرات إلى نوع غامض وخفى من الشفرة التى لا يعرف أسرارها سوى الموظفين المختصين . وهى شفرة غالبا ما تكون ضد مصالح الجمهور . فالموضوعات التى يراد التخلص منها أو تجميدها لأجل غير مسمى لها تأشيرة ذات صيغة معينة ، حتى لو كانت هذه التأشيرة لمسئول كبير قد يكون بدرجة وكيل وزارة مثلا . كذلك تتأثر فعالية التأشيرة بلون الحبر الذى تكتب به ، فاللون الأزرق أو الأسود مثلا يمكن أن يعنى عدم تنفيذها أو على الأقل تأجيلها لحين صدور إشعار آخر ، أما اللون الأحمر أو الأخضر فيمكن أن يعنى العكس تماما .

والجمهور يملك حساً مرهفاً تجاه تلك الألاعيب ولذلك فهو يتسلح بالزئبقية أيضا لإنجاز أعماله تطبيقا للمثل المعروف « يا بخت مين كان النقيب خاله » . إنه يدرك جيداً أن وجود أوراقه فى أية ادارة يعنى دفنها فيها لأجل غير مسمى ، ولن تبعث فيها الحياة إلا اذا تدخل فى الأمر أحد كبار موظفى هذه الإدارة ، أو تمكن صاحب المصلحة من الوصول

إلى الموظف المختص بطريقة أو بأخرى لبعث الحياة فى الموضوع من جديد وتحريكه إلى مرحلة أكثر تقدما وهكذا .

لكن التطور الحضارى للمجتمع لا يمكن أن يسير على هذا المنوال المعوق تماما لكل انطلاقات الإنسان وطاقاته . والمشكلة لا تكمن فى النظام الإدارى بقدر ما تكمن فى القائمين عليه . فهذا النظام مجرد وسيلة لتسيير الأمور أو لتعويقها طبقا لعقليات المسئولين عنه . أى أن الزئبقية البيروقراطية هى فى حقيقة أمرها مشكلة أفراد قبل أن تكون مشكلة تنظيم، ولذلك يعتمد التطوير الإدارى على تطوير العقول وبناء الشخصيات السوية المتسقة مع نفسها ومع الواقع . كما يتوقف التطور الحضارى على مدى تجاوب العاملين فى الأجهزة الإدارية أو تكاسلهم ، والانتقال من الشخصية الزئبقية المراوغة المتسلقة إلى الشخصية الحضارية، المتسقة ، الواثقة من نفسها ، الواعية بقيمة مجتمعها الإنسانى ، كما يعتبر مرحلة حرجة للغاية لأنه يبرز التناقضات والمواجهات والصراعات بين قيم واتجاهات سلوكية قديمة وأخرى نتمنى أن تحل محلها ، مما يشكل معاناة أو صراعا أو ضياعا للعاملين فى الجهاز الإدارى الذين تعودوا على أنماط سلوكية راسخة . فهى مرحلة تحتاج إلى عملية محو نشطة لمجموعة الأنماط والعادات والتقاليد الإدارية التى لا تتفق مع التطور الحضارى للمجتمع ، ثم استراتيجية فكرية شاملة لاكتساب أنماط السلوك الحضارية الكفيلة بتحويل التنظيم الإدارى إلى آليات مرنة ومحركة للتقدم الإنسانى ، ودافعة للإنتاج القومى نحو آفاق

العصر ، بحيث ينتقل المجتمع من مرحلة الجمود والكمون والتوجس إلى مرحلة المبادرة والمبادأة والوعى بقيمة الوقت والفكر والجهد الإنسانى ، وضرورة الكفاية الإنتاجية كما وكيفا فى شتى المجالات .

هذا عن الزئبقية البيروقراطية ، أما الزئبقية الشعبية فى مواجهة الأجهزة الإدارية فلها أيضا أساليبها ومنافذها وأسرارها . وهى تتجلى بصفة خاصة فى تعامل الجمهور مع مصلحة الضرائب . فالناس يتفننون فى التهرب من الضرائب بوسائل شتى ، وذلك لعدم إيمانهم بأن هذه الضريبة تعود بالنفع على المجتمع كله فتنصلح أحواله وترتقى مستوياته . فلازالت الضريبة تحمل فى الأذهان مفهوم الجزية التى فرضت على الشعب طوال عصور وقرون متتابعة ، وكانت تعود إلى خزانة السلطان بصفة شخصية لينفق منها كما يشاء ، وربما أنفقها كلها على ملذاته ومتعه الشخصية وأبهة سلطانه وهيلما نه . وكان الويل كل الويل لمن يعجز عن أداء الجزية حتى لو أخذت من قوت أطفاله .

ويعتبر الوعى الضريبى مقياسا لتقدم الشعوب أو تخلفها . ففى الدول المختلفة يصبح التهرب من دفع الضرائب نوعا من الشطارة والفهلوة والذكاء والضحك على الذقون ، لأن إحساس المواطن بالدولة إحساس ضعيف ، أو هى خصم له لابد من مراوغته وخداعه حتى يمكن اقتناص أكبر قدر من المكاسب والفوائد منه ، بصرف النظر عن شرعيته أو عدم شرعيته . فهو غير مقتنع بضرورة مشاركة الأفراد فى الايراد العام للدولة التى تنفق منه على مشروعات التنمية والتطوير والتقدم .

ولذلك لا تعرف الدول المتخلفة مصطلح « دافع الضرائب » الذى يعتبر من ضمن مواصفات أو ألقاب المواطن فى الدول المتقدمة . فالمواطن فى الدول المتخلفة يرى فى المال العام مجرد « مال سايب » ، و « المال السايب يعلم السرقة » كما يقول المثل الشعبى الشهير . فإذا لم يكن لهذا المال صاحب محدد فإن أى إنسان يستطيع الوصول إليه بطريقة أو بأخرى ، يمكن أن يصبح صاحبه بصفة شخصية . من هنا كانت حوادث الاختلاسات التى نسمع عنها من حين لآخر لوجود من يستحلون مال الحكومة سواء أكانوا من الموظفين أو من أية فئة أخرى يمكنها الوصول إليه .

من هنا كانت خطورة الزئبقية الشعبية على سياسة التنمية الاقتصادية وتدعيم البنية الأساسية وترسيخ الأمن القومى . إن التعاون الفعال بين الشعب والحكومة ليس مجرد شعارات ، بل هو خطوات إجرائية فعالة ، تأتى فى مقدمتها ضرورة دفع الضرائب المستحقة للدولة ، خاصة إذا كانت الدولة تراعى العدالة الضريبية بكل مقاييسها على كل المواطنين ، ولا تلجأ هى الأخرى إلى الأساليب الزئبقية لفرض الضرائب الغامضة والمراوغة لاقتناص أكبر قدر ممكن من جيوب المواطنين . وبدون هذا التعاون بين الشعب والحكومة يتعذر تدبير الميزانية الكفيلة بتنمية الاقتصاد القومى وتحقيق الحياة الكريمة لكل أبناء الوطن .

ولعل انتشار هذه الزئبقية راجع إلى غياب الأسلوب العلمى فى الإدارة، الذى يحدد القنوات ويقنن المسارات والمناهج التى تصبح

واضحة متبلورة بحيث تكشف كل خدع المراوغة وأحابيلها أولا بأول .
كذلك هناك قصور فى الأيديولوجية الثقافية والتربوية ، ناتج عن مناهج التعليم فى المدارس والمعاهد والجامعات التى لا تعلم خريجها التفكير العقلانى الموضوعى ، أو الثقة بالنفس ، أو احترام الذات ، أو القدرة على مواجهة المواقف ، والتعامل مع الآخرين دون خوف أو تردد . فهم يتخرجون بصفتهم موظفين حاملين لشهادات تؤهلهم فقط للالتحاق ببعض الوظائف ، لكنها لا تؤهلهم للابتكار والمبادرة وغير ذلك من عناصر المبادرة التى تمكنهم من الارتقاء بأنفسهم ماديا وأدبيا ، فيضطرون إلى اللجوء إلى الأساليب الزئبقية االتقليدية أو غير التقليدية لتعويض عجزهم عن تحقيق إنجازات اقتصادية شخصية بطرق حضارية .

وعندما يرتقى هؤلاء الموظفون فى السلم الوظيفى ويصلون إلى المناصب التى تسمى بالقيادية ، فإنهم يعوضون زئبقيتهم القديمة بالاستمتاع بزئبقية مرءوسيهم الذين يحيطونهم بهالة من التبجيل والرهبة ، ابتداء من مديرى مكاتبهم وأعضاء السكرتارية إلى السعاة . فالجميع على أتم استعداد لتقديم فروض الطاعة والولاء ، وهم رهن إشارته حيثما حل أو ذهب . وهكذا يزدهر النفاق والتملق والانتهازية ومسح الجوخ والتسلق والطعن فى الخلف . فى سبيل التكالب على الاحتفاظ بمكانة أثيرة فى بطانة الموظف القيادى الكبير الذى تتضخم ذاته ويشعر أنه محور الكون لكل من حوله ، فيركز السلطة فى يديه ، ولا يقبل تفويض أحدهم فى أى اختصاص من اختصاصاته حتى لا يشكل هذا أى

مساس بقيمته وأهميته وعظمته . وترحب المستويات الأدنى بهذه النرجسية لأنها تعفيها من تحمل المسئولية مما قد يؤدى إلى تعثر دوران الآلة الإدارية ، خاصة وأن الموظف القيادى الكبير الذى يركز السلطة كلها فى يديه ، يسعى فى الوقت نفسه إلى التنصل من حمل المسئولية والتهرب من تبعاتها ، مستخدما فى ذلك خبرته الزئبقية القديمة عندما كان مرءوساً .

ويحرص صغار الموظفين على أن يتعرفوا على توجيهات كبار الموظفين من رؤسائهم قبل أن يتحركوا أية خطوة مهما كانت صغيرة ، وكثيراً ما يتردد الرؤساء فى حسم أى موضوع يمكن أن تترتب عليه أية مسئوليات مهما كانت بسيطة . وبذلك يضيع الوقت والجهد بين صغار الموظفين وكبارهم ، وتسود الزئبقية التى تصنع العراقيل فى كل خطوة . وإذا ما تساءل المواطن صاحب المصلحة عن السر فى تعثر موضوعه ، فإن الزئبقى الكبير أو الصغير لن يعدم القدرة على التبرير بأعذار وحجج قد تبدو مقنعة أو مزيفة ، لكن المواطن سواء اقتنع أم اكتشف زيف الحجة، ليس له حول أو قوة . لكن صبره إذا نفد فإنه يلجأ بدوره إلى الأساليب الزئبقية وفى مقدمتها الشكاوى الكيدية التى يرسلها إلى كبار المسئولين دون توقيع أو بتوقيع مزيف على أساس أن « العيار اللى مايصيبش يدوش » أى أن الزئبقية فى كل الأحوال هى من أخطر معوقات الإنتاج . ولا يمكن التخلص منها إلا إذا تحول موظفو الجهاز الإدارى من السلوك السلبى إلى السلوك الإيجابى الهادف الذى يوثق الروابط بين أفراد الوحدة الإدارية الواحدة وغيرها من الوحدات ، وبين الجهاز

الإدارى والمواطنين ، بحيث يحل السلوك التعاونى المتناغم نحو هدف واحد محل السلوك التنافرى بين كل عناصر الآليات الإدارية ، وفى هذا يضيف الدكتور ملاك جرجس قوله :

« لا يمكن الوصول إلى السلوك الإيجابى الهادف بين المواطنين أو فى الجهاز الإدارى إلا إذا تطور سلوك الأفراد من نمط القلق وتوقع الخطر ، وبالتالى بذل كل الجهود لتفادى المسئولية ، إلى نمط السلوك الآمن المطمئن ، ذلك لأن الشعور بالأمن والطمأنينة من الحاجات الرئيسية التى يحتاج إليها الإنسان فى جميع مراحل حياته ، ولا أدل على أهمية التطور نحو هذا النمط من السلوك الإدارى من أن السلوك الهادف المنتج هو السلوك الآمن ، وبدون الشعور بالأمن يصبح السلوك سلوكا إحباطيا، أو عشوائيا ، أو هروبيا ، ومن ثم لا يصبح الإنتاج هدفا ولكن يصبح الأمن الهدف الأساسى » .

هذا عن الزئبقية البيروقراطية أما الزئبقية الحرفية فتتميز بالبساطة والمباشرة وأحيانا السذاجة . فما أسهل أن يضرب الحرفى فى ورشته ميعادًا لإنهاء مهمة معينة لأحد زبائنه ، وهو يعلم جيدا أنه لن يوفى بها فى هذا الميعاد ، لكن هدفه هو « ترييح الزبون » إيمانا بالمثل الشائع « كلمة حاضر تريح » ، لكنها كلمة مزيفة تهدف إلى « ترييح الزبون » فى اللحظة الراهنة فحسب ، ثم تؤدى إلى حرق أعصابه واحتكاكه بالحرفى إذا اكتشف أنه يتلاعب به بمجرد كلمات معسولة لا تتحول إلى خطوات عملية فعالة .

وينتقل مبدأ « ترييح الزبون » إلى مجالات البيع والشراء ليرتدى شعاراً آخر هو « تحلية البضاعة » ، فالبائع يدرك تماما عيوب السلعة التى يقوم ببيعها ، لكن هذه العيوب تتحول بقدرة قادر إلى محاسن قل أن يجود الزمان بمثلها ، خاصة إذا استشف البائع جهل المشترى بأصول الصنعة وأسرارها . ولذلك يمكن أن يقنع البائع زبونه بشىء ثم يقوم بإقناع زبون آخر بشىء مناقض له تماما فيما يتصل بنفس السلعة . فالكلام عنده كرة يتلاعب بها كما يشاء إيمانا منه بالمثل الشعبى الذى يتساءل : « هو الكلام عليه جمرك؟! » . ولذلك فالكلام سلعة متجددة لا تنتهى لأنه كفيل بترويج السلعة المادية التى يجب أن تنتهى بأسرع ما يمكن حتى تحل محلها سلعة جديدة وهكذا ، بحيث لا تتوقف عجلة رأس المال عن الدوران .

لكنها لابد أن تتوقف عندما يكتشف الزبون أنه كان ضحية غش وخداع ، فالمكسب السريع نفسه قصير ، أما المكسب الذى ينهض على ثقة واحترام لاسم السلعة وبالتالى احترام للزبون ، فربما كان بطيئا بعض الشىء حتى يترسخ الاسم فى السوق ، لكن بمجرد رسوخه يصبح ماركة لا تعنى سوى الثقة والضمان فى نظر الجمهور ، ولا داعى عندئذ لاستخدام الألاعيب الزئبقية التى لا يلجأ إليها سوى المحتالين والنصابين والأفاقين الذين يهدفون إلى الإثراء الفاحش السريع ثم يهربون بغنيمتهم إلى حيث لا يستطيع ضحاياهم الإمساك بتلابيبهم ، أما الاسم المحترم الجدير بالثقة فهو ثروة متجددة ، والدليل على ذلك أن كبار

رجال الأعمال عندما يقومون بشراء مؤسسة ما ، يصرون على شراء اسمها للاحتفاظ به عنوانا لأنه جزء من رأس المال . فيفضلون أن تتوارى أسماؤهم خلف الاسم القديم الذى احتاج إلى عمل طويل وشاق حتى رسخ فى ذهن الجمهور .

والمبدأ أو المثل الذى يقول إن « التجارة شطارة » لا يمكن أن يكون مثلا غير أخلاقى بحيث يعنى الغش والاحتيال والنصب والخداع والمراوغة والكذب ، وإلا خلا ميدان التجارة من الشرفاء . بل تعنى الشطارة هنا العمل الدءوب ، والنظرة البعيدة ، والرؤية الثاقبة ، والإحساس الصادق باحتياجات السوق ، والتنبؤ بالتطلعات الجديدة ، والحرص على ثقة العميل ، والجمع بين الجودة النوعية والسعر الأرخص بقدر الإمكان . وشعار « الزبون دائما على حق » لا يعنى إيهامه بأنه على حق لابد أن يحصل عليه بطريقة أو بأخرى ، بل هو حقيقة تؤكد ضرورة حصول الزبون على ما تصبو إليه نفسه وبما يناسب قدرته الشرائية بلا مغالاة .

وكان للزئبقية المهنية سواء أكانت بيروقراطية أم حرفية نصيب كبير فى أمثالنا الشعبية التى تعرى سلبياتها وتسخر منها وإن كانت تبدو للعين العابرة وكأنها تزكيها فى أقوال مأثورة ، فهى بنفس القدر تدعم الإيجابيات وتلقى الأضواء الفاحصة على جوانبها المتعددة . من هذه الأمثال الشعبية :

- يا بخت مين كان النقيب خاله .

- كلمة حاضر تريح .
- التجارة شطارة .
- اللى له ضهر ما ينضربش على بطن .
- اشتغل الجمعة والعيد ولا تتحوجش لأخيك السعيد .
- اللى ماله شغلة تشغله يفتح الباب ويقفله .
- يموت المعلم ولا يتعلم .
- إن مال عليك الزمن ميل على دراعك .
- احنا ساعين والرب يعين .
- اعمل اللى عليك والباقى على الله .
- اسع يا عبد وأنا اسعى معاك وإن نمت يا عبد مين ينفعك ؟
- اتعب ترتاح .
- اركب الأهوال تكتسب أموال .
- اتعب لسانك ولا تتعب أقدامك .
- اشتغل بقلبك ولو كان سخرة .
- اشتغل لحد ماتكل ولا تستحمل الذل .
- اذا كان رزقك ضيق حطه فى ماعون واسع .
- اللى وراه الطلق ماينامش .
- أكل العيش يحب الخفية .

- الجرى نص الشطارة .
- اللى ما يقعد فى الكوم ويتعفر ييجى فى الجرن ويتحسر .
- المال اللى ما تتعب فيه اليد ما يحزن عليه القلب .
- يا طالب المال لوقف الحال العمل عمال والمال همال .
- حجر داير ولا سبع نايم .
- الإيد التعبانة شبعانة .
- اعمل وافتخر واللا أقعد واتعفر .
- أعمل حاجتى بإيدى ولا أقول للكلب يا سيدى .
- اللى من إيده الله يزيده .
- العمل عبادة .
- اللعب بالقطط ولا البطالة .
- الإيد البطالة نجسة .
- رأس الكسلان بيت الشيطان .
- اللى ياكل بلاش ما يشبعش .
- إخدم تتقدم أقعد تتندم .
- اللى ما يقضى حاجته بايده ياكتر تنكيده .
- أكل ومرعى وقلة صنعة .
- قاعدة على قاعدة فات النهار واتشمتت الأعدا .

- مافيش حلاوة من غير نار .
- اللى ياكل العسل يصبر لقرص النحل .
- اللى ما يشقى ما يلقى .
- تعب ساعة ولا كل ساعة .
- آخر التعب راحة .
- اللى ما يتعب ويبان عليه نيموه وابكوا عليه .
- حط قبل ما تتعب وشيل قبل ما تستريح .
- فرق شمله يخف حمله .
- اللى ما يخدم فى صغره ما يشوف خير فى كبره .
- الاستقامة رأس النجاح .
- اتق الله فى صنعتك ولو كنت حرامى .
- أبطىء فى الوعد وأسرع فى التتميم .
- قبل ما تعمل شىء اقرا عواقبه .
- اللى يحسب الحسابات فى الهنا يبات .
- طولة البال تهد الجبال .
- اللى ابتدا بده يكمل .
- صاحب بالين كداب وأبو تلاتة منافق .
- إن طاب لك طاب لك وان ما طالب لك حول طتبك .

- يبيع الميه فى حارة السقايين .
- زى المزين يضحك على الأقرع بطقطقة المقص .
- يموت الزمار وصباعه بيلعب .
- تقاتل الكمسارية من حظ الركاب .
- ولسه ياما فى الجراب يا حاوى .
- اللى ما يقدر عليه القدوم يقدر عليه المنشار .
- إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه .
- المركب اللى فيها ريسين تغرق .
- الاعتبار للمال قبل الرجال .
- الفلوس على كل شىء تدوس .
- اللى ما عنده فلس ما يساوى فلس .
- اللى معاه قرش ابنه يزمر .
- القرش صياد :
- افتح جيبك ينقفل عيبك .
- المال السايب يعلم السرقة .
- هين قرشك ولا تهين نفسك .
- اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب .
- مال الكنزى للنزهى .

- الفلوس زى العصافير تروح وتيجى .
- مال تجيبه الريح تاخده الزوابع .
- مال الوقف يهد السقف .
- مال الناس كناس وقليل الغنى .
- عمر المال الحلال ما يضيع .
- طالب المال بلا مال زى حامل الميه فى الغربال .
- السلف تلف والرد خسارة .
- ما يموتش حق وراه مطالب .
- اللى يجبنى على مالى لا عاش ولا بقى لى .
- يا واخد القرد على ماله بكره يروح المال ويفضل القرد على حاله .
- الغالى تمنه فيه .
- اشترى لنفسك وللسوق .
- بيع الدهب واشترى العتب .
- آخر النهار اختيار .
- اللى اشترى مالا يحتاج إليه باع ما يحتاج إليه .
- اللى بدك ترهنه بيعه .
- الشرط نور ـ اللى أوله شرط آخره نور .
- بين البايع والشارى يفتح الله .

- على قد زيته كيل له .
- اتعاشروا زى الاخوان واتعاملو زى الأجانب .
- البيع فرص والشرا فرص .
- بيع بخمسة واشترى بخمسة ، يرزقك الله من بين الخمستين .
- المكسب فى الجلة ولا الخسارة فى المسك .
- اللى يخسرك مالك يخسرك روحك .
- الخسارة تعلم الشطارة .
- ابن سوق .
- كن فى أول السوق يا جحا ولو بقص اللحى .
- ضيع سوقك ولا تضيع فلوسك .
- على عينك يا تاجر .
- العينة بينة يا زباين .
- اللى ما يشترى يتفرج .
- ده فى السوق وده فى السوق والرك على النصيب .
- خلى العسل فى جراره لما تيجى أسعاره .
- خلى العسل فى قنانيه لما ييجى الخايب يشتريه .
- شرط الأخد العطا .
- إذا وصلت وسلم الله ، بيع بما قسم الله .

- من سرح بدرى روّح بدرى .
- خليك فى حالك يزيد رسمالك .
- اللى بده الناس تتاجر له بده خوازيق تتنجر له .
- ماحدش يقول عن عسله حامض .
- ماحد بينادى على زيته عكر .
- أكتر التجار فجار .
- اللى ما معاهوش مايلزموش .
- الفاجر ياكل مال التاجر .
- الرزق يحب الخفية .
- الأرزاق على الخلاق .
- آدى الباب وآدى الباب والرزق على الرحمن .
- القناعة مال وبضاعة .
- من خاف سلم .

الفصل السادس
الزئبقية النسائية

إذا كان القهر السياسى الذى عانى منه الرجل عبر عصور طويلة وقرون متتابعة قد أجبره على سلوك تلك المسالك الزئبقية التى تناولناها بالتشريح والتحليل فى الفصول السابقة ، فإن القهر الاجتماعى الذى عانت منه المرأة على يدى الرجل قد اضطرها إلى التسلح بكل أنواع التلون الزئبقى حتى تواصل العيش بطريقة أو بأخرى ، وتحافظ على كيانها بقدر الإمكان . وكأن الرجل أراد أن ينفس عن قهره السياسى والاقتصادى على أيدى الحكام الأجانب فى قهره للمرأة التى لا حول ولا قوة لها ، فأحال البيت إلى معتقل أو سجن مؤبد لها . وكانت المفارقة الغريبة أنها اعتادت السجن الذى وجدت فيه حياتها التى لا حياة لها غيرها . وتمثل رعبها الأزلى فى أن تجد نفسها ملقاة ذات يوم خارج أسوار السجن إذا لم يرض عنها سجانها .

هذا عن وضع المرأة فى العصور الماضية ، أما فى عصرنا هذا فلا تزال المرأة تعانى من الاضطهاد وان كان فى صور مختلفة ، بل إن الصورة التى يحاول البعض رسمها لها تكاد تؤكد بمنتهى اليقين أنها سبب كل

المصائب ومصدر كل البلايا . فانتشار الجريمة والتطرف بسبب المرأة ، وليس بسبب المناطق العشوائية المخالفة التى تركت لتستفحل وتتحول إلى بؤر صديدية تطفح بالفساد والإجرام . كذلك فإن أزمة المساكن أو زحام المواصلات كان نتيجة لإصرار المرأة على مواصلة الإنجاب ، وإصرارها فى الوقت نفسه على مزاحمة الرجل فى العمل ، وليس بسبب الزحف المتسيب من الريف للحضر وعدم توطين السكان بصناعات محلية صغيرة . كما أن انتشار البطالة بين الشباب كان نتيجة لتقدم الفتيات وتفوقهن وحصولن على مراكز الصدارة فى التعليم ، وليس بسبب كارثة الانفجار السكانى .

هكذا انتشر هذا التفكير الزئبقى الذى يتذرع بحجج مزيفة وادعاءات كاذبة تلصق التهم بالأبرياء وتشتت التفكير بعيدا عن جوهر المشكلة وحقيقتها ، فى حين تؤكد الإحصائيات الصادرة عن الهيئات الدولية مثل اليونسكو أن بعض الدول مثل ماليزيا وتايوان وسنغافورة كانت تعانى من الانفجار السكانى لكنها أحالت تشغيل النساء إلى كابح لتثبيت معدل الزيادة السكانية ، كذلك كان ارتفاع وعى المرأة وانهماكها فى الإنتاج القومى فى بلاد مثل اليابان ، والهند ، وكولومبيا ، وأورجواى ، وشيلى قد أدى إلى انخفاض معدل السكان دون شعارات أو إعلانات أو مؤتمرات .

وبرغم أن جميع الأنشطة والخطط والبرامج التى تضعها منظمة اليونسكو لا تفرق بين الرجال والنساء ، إلا أن الفقرة ١١١٧ لعام

١٩٩٢ ـ ١٩٩٣ قد أكدت على ضرورة الحاجة لبرامج تعليمية تدعم دور النساء فى الإنتاج الاقتصادى وإعالة الأسر خاصة فى الدول النامية التى لا تزال تعانى من انخفاض مستوى المعيشة ، والتى يسود المجتمع النسائى فيها ما يسمى « بثقافة الصمت » التى تدفع المرأة إلى أن تخفى ما تبطن وما تعانيه من اعتلال لدرجة أنها أصبحت تعتبر الألم والمنغصات والمتاعب النابعة من الإنجاب ، جوهر أنوثتها .

وفى مجتمعنا النامى لا تجد المرأة وسيلة لتحقق بها وجودها وتثبيت ذاتها سوى عملية الحمل والإنجاب . فالحمل وما يترتب عليه من نتائج هو حدث مصيرى وتاريخى فى حياتها لا يضارعه فى الأهمية أى حدث آخر ، لأنه يمثل طقسا من طقوس الانتقال من مرحلة إلى أخرى . ولذلك تتعلم الفتاة أن تتحمل العبء والمعاناة الجسدية سواء فى الجنس أو الإنجاب حتى لا يهجرها زوجها إلى أخرى . وهى تدرك أنه خير وسيلة زئبقية للاحتفاظ به أن تنجب له أكبر عدد ممكن من الأبناء حتى يعجزه حمله الثقيل عن النظر إلى امرأة أخرى والتطلع إلى الزواج منها . وقد ثبت أن عدد السكان فى الأماكن الريفية أو الشعبية المحرومة يتزايد بسرعة كبيرة مما يهدد بانقلاب الهرم السكانى نتيجة لازدياد المواليد الذين يعانون من تبعات الفقر والجهل والمرض ، وفى الوقت نفسه تناقص المواليد الذين يشكلون الوسط الذى يترعرع فيه أصحاب العقول المفكرة والمخترعون والمبتكرون القادرون على التخطيط والتطوير والانطلاق إلى آفاق العصر .

ولكى تتخلص المرأة من ضعفها وسلبياتها وتحايلها على العيش ، لابد أن تمتلك من الحقوق ما يعادل واجباتها على الأقل . ولا يعنى تبنى قضايا المرأة أن هناك معركة بينها وبين الرجل أو أن هناك تخلياً عن أدوارها الأساسية ، أو رغبة فى تبادل هذه الأدوار ، لكن المطلوب هو تعزيز دور المرأة ومساعدتها على القيام بدورها الحضاوى فى بناء بلدها ، لا أن تقضى حياتها وهى تتسول وجودها يوما بعد يوم . فهناك بالفعل تحديات تتمثل فى ارتفاع نسبة الأمية والمشكلات الخاصة بالفتيات الصغيرات ، وغير ذلك من الممارسات الاجتماعية السلبية التى تجبر المرأة على المداهنة والمراوغة وكبت مشاعرها وأفكارها الحقيقية ، خاصة تلك التى يمكن أن تصطدم برغبات الرجل أو تقاليد المجتمع . وغالبا ما تكون هذه الرغبات بمثابة التقاليد التى لا يمكن التصدى لها .

ولذلك لابد أن يكون هناك تغيير لمتطلبات هذا المجتمع سواء فى طريقة التعليم أو طريقة التدريب أو طريقة التثقيف . بحيث تأخذ قضايا الأمية والفقر والمرض الأولوية الاستراتيجية التى يتم الإنفاق عليها باعتبارها استثماراً . لقد ثبت أن المرأة هى التى تلعب الدور الرئيسى فى تغيير نمط الحياة ، وفى تشكيل البنية الأساسية للإنسان المصرى ، وفى حل مشكلة الانفجار السكانى ، أى فى التنمية البشرية بصفة عامة ، وهى التنمية التى تعد أعظم استثمار تقوم به الآن دول الحضارة المعاصرة . ولا يمكن النهوض بهذه المهام إلا من خلال بناء الشخصية الواعية ، الناضجة ، القوية ، المتسقة للمرأة القادرة على التفكير العلمى ،

والمواجهة المباشرة ، والمصارحة العقلانية بعيدا عن أدوار الظل التى مارستها بكثير من الذل والتسول والتملق والمداهنة والمراوغة .

وقد أثبتت ثورة ١٩١٩ قدرة المرأة المصرية على القيام بهذه المهام برغم أن القانون فى ذلك الوقت لم يسمح لها بحق التصويت أو الترشيح ، وبرغم أن تعليم الفتاة كان لا يزال يحبو . ولذلك فإن عودة المرأة المصرية الآن إلى عهد التسول والتملق والمداهنة والمراوغة والسلبية الزئبقية ليست بقضية دولة أو نظام أو دستور أو حتى مجتمع ، بل هى قضية مرتبطة بوعى المرأة واحترامها لذاتها وثقتها بنفسها ، خاصة وأنها تتمتع بالحقوق الدستورية التى لم تحصل عليها الرائدات اللاتى صنعن الحركة النسائية المصرية وقَدْنَها من عام ١٩١٩ حتى عام ١٩٥٦ حين دخلت المرأة المصرية مجلس الأمة بتأييد من حكومة الثورة ، وبتشريع فى دستور ١٩٥٦ . وبالتالى فإن عودة المرأة إلى عصر الحريم مرة أخرى هو مسئولية المرأة المثقفة أو المتعلمة التى نالت من مجتمعها الكثير من الحقوق والامتيازات . فلا يعقل أن يكون جيل هدى شعراوى فى أوائل هذا القرن أكثر تقدما ، وأنضج فكراً ، وأعمق بصيرة ، وأبعد رؤية من الجيل النسائى الحالى فى أواخر القرن !! ولا يعقل أيضا أن تتحول المرأة إلى حرباء تغير لون جلدها تبعا لما تأتى به الأيام وكأنها فقدت إرادتها تماما .

ولعل ارتداد المرأة هذه الأيام إلى الزئبقية السلبية التى ميزت شخصيتها وعقلها وسلوكها فى عصر الحريم الذى استمر طوال العصرين المملوكى والتركى ، يرجع إلى أن القشرة الحضارية التى غلفت الحركة النسائية فيما

بين ١٩١٩ و ١٩٥٦ ، لم تجد من يدعمها ويقويها ويصقلها كي تصبح جزءاً عضوياً من الحركة ذاتها . وبالتالى ظلت هشة ومعرضة للكسر عند أول اصطدام بضربات مضادة . ومن الطبيعى أن تكون التراكمات والتكلسات التى ترسبت وترسخت فى شخصية المرأة المصرية عبر ما يزيد على أربعة قرون ، أقوى وأصلب وأعمق من التجربة التحريرية التى لم تستمر أكثر من نصف قرن . وهذا يوضح مدى جسامة المهمة الملقاة على عاتق المرأة كى تتخلص من هذه الرواسب المرضية القديمة بكل سلبياتها وتداعياتها التى تبلورها أمثالنا الشعبية عندما تعبر عن فقدان ثقة المرأة فى نفسها وفى الآخرين ، وإحساسها العميق بالضياع ، واقتصار حياتها على دور التابع الذليل الذى لا حول له ولا قوة ، ولجوئها إلى المراوغة والتملق والمداهنة والنفاق لعجزها عن التعبير الصادق الأمين عن مشاعرها وأفكارها فى مواجهة الآخرين خاصة الرجال منهم . من هذه الأمثال الشعبية ما يلى :

- يا مآمنة للرجال ، يا مآمنة للميه فى الغربال .
- الصبر جميل .
- دواء الدهر ، الصبر عليه .
- يعنى هايسخطوك يا قرد ، يعملوك إيه ؟
- ما تيجى المصايب إلا من القرايب .
- الكره من القرايب والحسد من الجيران .
- قريبك اللى انت عشمان فيه ، عدوك أقرب منه ليك .

- كيد القريب يغلب كيد الغريب .
- الدنيا زى الغازية ترقص لكل واحد شوية .
- امشى فى جنازة ولا تمشى فى جوازة .
- لا أحبك ولا أقدر على بعدك .
- الشاطرة تغزل برجل حمار .
- إن شاالله تغلبها بالمال ، وتغلبك بالعيال .
- خدى شايب يدلعك ولا تخدى صبى يلوعك .
- قعاد الخزانة ولا الجوازة الندامة .
- البسى خف واقلعى خف لما مايبقاش فى الدنيا ولا خف .
- لا اتجوزت ولا خلى بالى ولا أنا فضلت على حالى .
- عريس الغفلة والباب بلا قفلة .
- اقعدى فى عشك لما ييجى اللى ينشك .
- أحب ابن عمى ولو يسفك دمى .
- قرد موافق ولا غزال شارد .
- خدوهم فقرا يغنيكم الله .
- خد الأصيلة ولو كانت ع الحصيرة .
- يا واخد القرد على كتر ماله بكره يروح المال ويفضل القرد على حاله .
- بفلوسك بنت السلطان عروسك .

- يا واخد المَره يا مسخرة . (يقصد بها التى سبق الزواج لها) .
- اللى يتجوز اتنين يا قادر يا فاجر .
- إذا كان بدك غراب البين اتجوز اتنين .
- الطول على الحور والتخن عل الجميز .
- اللى بعرقوبها تدبح الطير ، اهرب منها ما فيها خير .
- يا واخد السود يا مقضى الزمان حزين ، ضيعت مالك فى خنفس وجالوص طين .
- ادبح بسك ليلة عرسك .
- قبل ما تناسب حاسب .
- خد من الزرايب ولا تاخد من القرايب .
- اتجوز بنت اللى يقيد لك حمارتك .
- خد بنت الندل وخاصمه .
- لا تأمن للمرة إذا صلت ولا للشمس إذا ولت .
- اذا كانت المرة لها كانون فى البيت هده .
- إذا كان لسان المرة جهر اقطعه .
- الرجالة غابت والستات سابت .
- من يريحهم يتعبوه ومن يتعبهم يريحوه .
- إن حبوك يا ويلك و إن كرهوك يا ويلك .

- مرة ابن مرة اللى يطاوع مرة .
- اللى مالوش مرة مالوش عدو .
- من أعطى سره لمراته يا طول عذابه وشتاته .
- آمن للحية ولا تآمن للمرة .
- يا ويل اللى علته مرته يموت والطبيب حداه .
- شاورهم وخالف شورهم .
- الراجل ابن الراجل اللى عمره ما يشاور مرة .
- بدال خطوطك والحمرة امسحى عماصك يا سمرة .
- مال طاقيتك مقورة قال من تدبيقك يا مرة .
- أقول لها انت طالق تقول قوم بينا ننام .
- اللى مراته خايبة وسخ وكمامه دايبة .
- الزمان ده يا الله هده لما الراجل يغضب والست ترده .
- يا مزكى على أهل بره زكى على أهل جوه .
- يا مجامل الغُرب تفتخربيهم جامل أهل بيتك تكسب أجرهم .
- اكسر جاه ميه ولا تكسر جاه وليه .
- اللى يقول لمراته يا هانم يقابلوها ع السلالم .
- حرمة من غير راجل زى الطربوش من غير زر .
- يا سوق بلا رجالة وايش تعمل النسوان .

- اللى جوزها يقول لها يا عورة الناس تلعب بها الكورة .
- ضل راجل ولا ضل حيط .
- اللى جوزها يحبها الشمس تطلع لها .
- اللى جوزها معها تدور الدنيا بصباعها .
- اللى ما عندهاش رجالة تضرب صدرها بالحجارة .
- أخذتنى لحم ورمتنى عضم .
- خدوا جوز الخرسة اتكلمت .
- خدوا جوز العاقلة اتجننت .
- عيش يا حبيبى ولا تبكينى ، حسك فى الدنيا يكفينى .
- بلاش توكلنى فرخة سمينة وتبيتنى حزينة .
- لا حصيرة ولا مخدة وكمان مش لده .
- كانوا بيحسبوا الجواز هدية لقوها رزية .
- جت العازبة تشكى لقت المتجوزة بتبكى .
- يخش من العتبة ينشف الرقبة .
- ييجى من بره يكسر الجرة .
- قصقصى طيرك ليلوف بغيرك .
- إذا كان الرجل بحر تكون المرة جسر .
- العاقلة والمجنونة عند الراجل بالمونه .

- الندب بالطار ولا قعاد الراجل فى الدار .
- بره وجوه فرشت لك وانت مايل وإيه يعدلك .
- أخدتك يا سنبلة روحى علشان أكيد العوازل كدت أنا روحى .
- خدى لك راجل يبقى لك بالليل غفير وبالنهار أجير .
- قلوب الرجالة صناديق مقفولة .
- جرى الرجالة زى بحر النيل وجرى الولايا زى نقط الزير .
- يا بخت الناس برجالنا وياتعاستنا برجال غيرنا .
- يا صعيدية جوزك قبل ، قالت قلبى ع الفراق اتدبل .
- أول سبوع يا عروسة خوخة وتفاحة وتانى سبوع يا عروسة على المحكمة راحة .
- عروس الدار مالهاش مقدار .
- ما تعرف خيرى إلا لما تشوف غيرى .
- آدينى حية لما أشوف اللى جاية .
- اللى ما يستعنانيش وردة على راسه ، ما استعناهوش جزمة فى رجلى .
- اللى ما يخدنى كحل فى عينه ما آخده صرمة فى رجلى .
- الشاطره تقول للفرن قيد من غير وقيد .
- البحر غربال الخايبة .
- اللى يطلع من داره ، يتقل مقداره .

- يا دارى يا ساترة عارى يامنيِّمانى للضحى العالى .
- قعدتى بين أعتابى ولا قعدتى بين أحبابى .
- الشاطرة تقضى حاجتها والخايبة تنده جارتها .
- تغسل غسيل هلس وتتكل ع الشمس .
- مرة تضحك على مرة وتقول لها أنا عشتى مدبرة .
- الكى بالنار ولا حماتى فى الدار .
- من يوم ما ولدونى فى الهم حطونى .
- يا دخلتى على اللى ما يريدونى لا سلامات ولا وحشتونى .
- حطوا علىَّ كلكم لما الهم خلانى لكم .
- عرق ورا الودن ما يحبش مراة الإبن .
- إذا كانت الغلة تيجى قد التبن كانت الحما تحب مراة الإبن .
- الضُّـرَّة مرة ولو كانت حلق جرة .
- يا كاتبة يا ساحرة لا نايبك من الدنيا ولا من الآخرة .
- تاخدى جوزى وتغيرى ما تخيلى .
- ياميلتى جاتنى دريرتى .
- اصبرى يا ستيت لما يخلالك البيت .
- ألف رفيقة ولا لزيقة .
- مركب الضراير سارت ومركب السلايف غارت .

- لولاكى يا جارتى لا تفقعت مرارتى .
- القبيحة ست جيرانها .
- ما تبان البضاعة إلا بعد الحمل والرضاعة .
- عمر المرة ما تربى عجل وينفع .
- أسيادى وأسياد أجدادى ، اللى يعولوا همى وهم ولادى .
- اكفى القدرة على فمها تطلع البنت لأمها .
- يا مخلفة البنات يا دايخة للمهات .
- لم قالوا ده ولد شد ظهر أمه وانسند .
- لما قالوا ده غلام شد ظهر أمه وقام .
- اللى تحت الطرحة ماهاش فرحة .
- إذا كان صاحب البيت بيزمر ليه الست ماترقص .

مراجع عربيــة

- أحمد عكاشة : عقوب فى الضمير ١٩٩١
- ابراهيم أحمد شعلان : الشعب المصري فى أمثاله الشعبية ١٩٧٢
- أحمد أمين : قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، د. ت
- أحمد رشدى صالح : الأدب الشعبى ١٩٥٧
- أحمد مرسى : الأغنية الشعبية ١٩٧٠
- جمال حمدان : شخصية مصر : دراسة فى عبقرية الملك ١٩٩٣
- حامد عمار : فى بناء البشر ١٩٨٩
- سيد كريم : الحكم والأمثال فى الأدب الفرعونى ١٩٩٤
- عبد الحميد يونس : دفاع عن الفولكلور ١٩٧٣
- على الراعى : شخصية المحتال فى المقامة والحكاية والرواية والمسرحية ١٩٨٥
- عمر الدسوقى : الفتوةعندالعرب د. ت
- فاروق خورشيد : أضواء على السير الشعبية ١٩٦٤
- فاطمة حسين المصرى : الشخصية المصرية ١٩٨٤
- فؤاد حسنين : قصصنا الشعبى ١٩٦٣
- فوزى العنتيل : بين الفولكلور والثقافة الشعبية ١٩٧٨
- فوزية دياب : القيم والعادات الاجتماعية ١٩٦٦
- محمد صفوت : الأمثال الشعبية ١٩٧٧
- مصطفى فهمى : الشذوذ النفسى ١٩٥٨
- مصطفى فهمى : التكيف النفسى ١٩٧٨
- مصطفى فهمى : الشخصية فى سوائها وانحرافها ١٩٨٧
- ملاك جرجس : سيكلوجية الشخصية المصرية ومعوقات التنمية ١٩٧٤
- نبيل راغب : الشخصية المصرية بين الحزن والمرح ١٩٩٢

١٩٦٨

- نعمات أحمد فؤاد : شخصية مصر ١٩٦٧
- وليم نظير : العادات المصرية بين الأمس واليوم ١٩٧٨
- يحيى الرخاوى : أغوار النفس من واقع العلاج النفسى والحياة ١٩٩٢
- يحيى الرخاوى : مثل وموال : قراءة فى النفس الانسانية ١٩٨٣

فصول الدراسة

د. نبيل راغب
سجل بالمؤهلات والمؤلفات والمناصب

المؤهلات :

١ ـ ليسانس اللغة الانجليزية وآدابها ـ جامعة القاهرة ـ ١٩٦٠ .

٢ ـ ماجستير فى الأدب الانجليزى فى موضوع «مفهوم الحب فى مسرحيات برنارد شو» ١٩٦٧ .

٣ ـ دبلوم فى اللغويات الانجليزية التطبيقية من جامعة لانكستر بانجلترا ـ ١٩٧٢ .

٤ ـ دكتوراه فى الأدب الانجليزى فى موضوع « مفهوم الطبيعة فى أعمال جورج ميريدث » ـ ١٩٧٦ .

المناصب :

١ ـ مدرس الأدب الانجليزى بكلية الألسن (١٩٦٠ ـ ١٩٧٥)

٢ ـ أستاذ مساعد النقد بالمعهد العالى للنقد الفنى بأكاديمية الفنون (١٩٧٥ ـ ١٩٨١)

٣ ـ مستشار وزير الثقافة (١٩٧٢ ـ ١٩٧٤)

٤ ـ مستشار السيد رئيس الجمهورية (١٩٧٤ ـ ١٩٨١)

٥ ـ أستاذ النقد الفنى بأكاديمية الفنون (١٩٨١ ـ ١٩٨٦)

٦ ـ أستاذ وعميد المعهد العالى للنقد الفنى بأكاديمية الفنون (١٩٨٦ـ١٩٩٢)

٧ ـ أستاذ ورئيس قسم النقد الأدبى بالمعهد العالى للنقد الفنى (١٩٩٢)

المؤلفات :

الدراسات :

١ ـ قضية الشكل الفنى عند نجيب محفوظ ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ ١٩٦٧ .

٢ ـ فن الرواية عند يوسف السباعى ـ مكتبة الخانجى ـ ١٩٧٢ .

٣ ـ مدارس الأدب العالمى ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ ١٩٧٥ .

٤ ـ أنور السادات رائدا للتأصيل الفكرى ـ دار المعارف ـ ١٩٧٥ .

٥ ـ المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية ـ مكتبة مصر ـ ١٩٧٧ .

٦ ـ معالم الأدب العالمى المعاصر ـ دار المعارف ـ ١٩٧٨ .

٧ ـ أدباء القرن العشرين (جزءان) ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ ١٩٧٩ .

٨ ـ موسوعة أدباء أمريكا (جزءان) ـ دار المعارف ـ ١٩٧٩ .

٩ ـ مستقبل الديمقراطية فى مصر ـ الهيئة العامة للاستعلامات ـ ١٩٨٠ .

١٠ ـ التفسير العلمى للأدب ـ المركز الثقافى الجامعى ـ ١٩٨٠

١١ ـ الاشتراكية والحب عند برناردشو ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ ١٩٨٠

١٢ ـ فن المسرح عند يوسف إدريس ـ مكتبة غريب ـ ١٩٨٠

١٣ ـ دليل الناقد الأدبى ـ مكتبة غريب ـ ١٩٨١

١٤ ـ دليل الناقد الفنى ـ مكتبةغريب ـ ١٩٨١

١٥ ـ النقد الفنى ـ دار المعارف ـ ١٩٨١

١٦ ـ الدراما الواقعية عند نعمان عاشور ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ ١٩٨٢

١٧ ـ القواعد الذهبية لإتقان اللغة العربية ـ مكتبة غريب ـ ١٩٨٦

١٨ ـ موجز قواعد اللغة الانجليزية ـ مكتبة مصر ـ ١٩٨٦

١٩ ـ لغة المسرح عند ألفريد فرج ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ ١٩٨٦

٢٠ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ ١٩٨٧

٢١ ـ فن الدراما عند رشاد رشدى ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ ١٩٨٧

٢٢ ـ موسوعة الفكر الأدبى (جزءان) ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ ١٩٨٨

٢٣ ـ أعلام التنوير المعاصر ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ ١٩٨٨

٢٤ ـ موسوعة الفكرالقومى العربى ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ ١٩٨٩

٢٥ ـ مسرح التحولات الاجتماعية ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ ١٩٩٠

٢٦ ـ الملحمة الإلهية ـ دار الثقافة ـ ١٩٩٠

٢٧ ـ الشخصية المصرية بين الحزن والمرح ـ دارالثقافة ـ ١٩٩٢

٢٨ ـ زواج العلم والأدب ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ ١٩٩٢

٢٩ ـ فن التأليف الروائى ـ مكتبة مصر ـ ١٩٩٢

الكتب المترجمة :

٣٠ـ الليلة الأخيرة فى القرن العشرين ـ دار كتابات معاصرة ـ ١٩٦٩

٣١ ـ ثورة الصيادين (رواية ألمانية) ـ دار كتابات معاصرة ـ ١٩٧٠

٣٢ ـ معالم الثقافة الأمريكية (دراسة موسوعية) دار المعارف ـ ١٩٨٠

الروايات :

٣٣ ـ الوصمة	مكتبة غريب	١٩٧٨
٣٤ ـ البطانة	مكتبة غريب	١٩٧٩
٣٥ ـ جبروت امرأة	مكتبة مصر	١٩٨٠
٣٦ ـ توابل الحب	مكتبة مصر	١٩٨٠
٣٧ ـ سور الأزبكية	مكتبة مصر	١٩٨١
٣٨ ـ سوق الجوارى	مكتبة مصر	١٩٨١
٣٩ ـ عصر الحريم	مكتبة مصر	١٩٨١
٤٠ ـ الجيل الضائع	مكتبة مصر	١٩٨٢
٤١ ـ غرام الأفاعى	مكتبة مصر	١٩٨٣
٤٢ ـ شق الثعبان	مكتبة مصر	١٩٨٣
٤٣ ـ قلعة الكبش	مكتبة مصر	١٩٨٤
٤٤ ـ درب الشوك	مكتبة مصر	١٩٨٥
٤٥ ـ الكودية	مكتبة مصر	١٩٨٦
٤٦ ـ بنات مصر الجديدة	مكتبة مدبولى	١٩٨٧
٤٧ ـ بحر الظلمات	مكتبة مصر	١٩٨٨
٤٨ ـ زمن الجنون	مكتبة غريب	١٩٨٨

٤٩ ـ أبناء الرعد	مكتبة مصر	١٩٩١
٥٠ ـ عصر الاسكندرية الذهبى	الهيئة المصرية للكتاب	١٩٩٢
٥١ ـ العلم . . تجربة روحية	دار المعارف	١٩٩٥
٥٢ ـ شجرة العواصف	مكتبة مصر	١٩٩٣
٥٣ ـ سرقة توت عنخ آمون	دار ميدلايت للنشر	١٩٩٣
٥٤ ـ شمهورش الجبار	دار ميدلايت للنشر	١٩٩٣
٥٥ ـ موسم ذبح الإناث	دار ميدلايت للنشر	١٩٩٤
٥٦ ـ عاشقة الضباب	مكتبة مصر	١٩٩٣
٥٧ ـ دماء غجرية	مكتبة مصر	١٩٩٤
٥٨ ـ نزوة نوبية	مكتبة مصر	١٩٩٤
٥٩ ـ نقاد الأدب : رشاد رشدى	الهيئة المصرية للكتاب	١٩٩٣

٦٠ ـ فن العرض المسرحى ـ الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ـ ١٩٩٥

٦١ ـ أساسيات النقد الفنى ـ الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ـ ١٩٩٥

٦٢ ـ فنون الأدب العالمى ـ الشركة المصرية العالميةللنشر لونجمان ـ ١٩٩٦

٦٣ ـ موسوعة الإبداع الأدبى ـ الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ـ ١٩٩٦